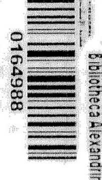


المساكين



تأليف
دستويفسكي

غزالي



المساكين

تأليف

دوستويفسكى

ترجمة

سعد الغزالى

دار الطباعة الحديثة
٥ شارع غيط النوبى - ت ٤٩٣١٨

ف . م . دوستويفسكى

حياة دوستويفسكى مأســـاة روح عظيمة . تأثرت بآلام البشر . فقد حملت عبقريته عبء المظالم الاجتماعية وما يعانيه الناس من عذاب ثم مالبثت أن ناءت بما حملت ، فتحطمت هى نفسها تحت هذا العبء .

ولد فيودور ميخائيلوفتش دوستويفسكى فى موسكو سنة ١٨٢١ وعاش إلى سنة ١٨٨١ ، وكان أبوه طبيباً فى مستشفى خـــيرى ، وفى ١٨٤٣ أنهى دوستويفسكى دراسته فى مدرسة الهندسة العسكرية بسانت بطرسبرج ، والتحق بمكتب التصميمات بوزارة الأشغال . ولما لم ترضه الوظيفة استقال فى سنة ١٨٤٤ وبدأ حياته الأدبية .

وكانت أولى أعماله رواية المساكين وهى التى جلبت له الشهرة .

ورواية « المساكين » مهداة ـــ إلى « البؤساء » الذين هضمت حقوقهم ، وداستهم الأقدام ، والذين وصفهم بعمق وحرارة وإحساس وبطل هذه الرواية كاتب بائس يحتقره الجميع هو ـ ما كار اليكسيفتش ـ الذى حطمته الحياة ، حتى ليخشى الاعتراف بأنه بائس .

والرواية مكتوبة فى صورة سلسلة من الخطابات لا يعلق عليها الكاتب . والواقع أن هذا قد أتاح له أن يكشف عن أعمق الأغوار فى عقلية بطله ... هذه العقلية التى تبدو تافهة أحيانا ، مضحكة أحيانا أخرى : أحيانا تثير الضحك ، وأحيانا تافهة .

وقد كان دوستويفسكى تلميذاً لجوجول وبيلنسكى ؛ لذا فقد وعى أرقى ما وصل إلى عصره من أدب ، وإن يكن كيانه الروحى قد اهتز اهتزازا عنيفا عندما حوكم لاتصاله بجماعة سياسية تقدمية ، وحكم عليه بالإعدام ، ثم خفض الحكم بعد ذلك إلى النفى ، بعد أن عانى المؤلف ما عانى من الإجراءات الخاصة بتنفيذ حكم الإعدام .

وعاد من منفاه بعد سنوات عشر ، ولكنه لم يعد الرجل الذى كان قبل أن يعانى هذه المحنة : كان قد فقد إيمانه « فى طبيعة الإنسان نفسها » فلجأ إلى الدين يطلب العزاء .

وقد وصل مؤلف « المساكين » إلى ذلك الحب المسيحى السلبى الذى يقول عنه « ا . هرذن » : « إن الحب السلبى قد يكون قويا ؛ فهو يبكى ويتحدث ويمسح الدموع ، ولكن المشكلة أنه لا يفعل شيئا » .

ولا تخلو كتابات دوستويفسكى من بعض الأفكار الرجعية حينما يعرض للمظالم الاجتماعية بعد أن فقد إيمانه بالبشر ، مما يدفع بالرد إلى التأمل السلبى للشر وإلى الفساد الاجتماعى ومع ذلك فإن ما فى عمله من صدق سيعيش إلى الأبد . .

أف .. من هؤلاء القصاصين . . !!

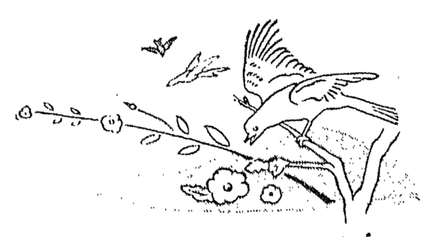
ألا يستطيعون كتابة شيء نافع أو ممتع أو مبهج ؟

كلا ! فإنهم لابد أن ينبشوا كل القاذورات !

ليتني أستطيع أن أمنعهم من الكتابة على الإطلاق . . فما فائدتها ؟ إنك لتقرأ ما يكتبون ولا تملك إلا أن تفكر ، وتقفز إلى ذهنك كل أنواع التفاهات !

. . ليتني أستطيع أن أمنعهم من الكتابة جميعاً . . ليتني أستطيع حقا . . .

الأمير ف . ف . أودويفسكي



٨ من أبريل :

حبيبتى فارفارا اليكسيفنا

كنت سعيدا الليلة الماضية ، سعيدا إلى درجة لا يتصورها العقل ، إذ فعلت مرة فى حياتك ياحبيبتى العنيدة كما طلبت منك. كانت الساعة الثامنة مساء عند ما استيقظت (وأنت تعلمين أننى مغرم بإغفاءة قصيرة بعــد العمل) . فأحضرت شمعة ، وأعددت أوراقى، وكنت أشذب ريشتى عند ماتصادف أن رفعت بصرى. .ولشد ما خفق قلبى ! . . إذ أخيرا فهمت ماذا أردت ، وما يتمناه قلبى ! كان ركن ستارك مثبتا بوعاء الريحان كما اقترحت أنا تماما ، بل لقد بدا لى أن وجهك الصغير يضيء خلف النافذة ، وأنك تختلسين النظر .. وتفكرين فى .. وأى أسى ملأنى يايمامتى الوديعة إذ كنت لا أستطيع أن أرى فى وضوح وجهك الصغير الحبيب.

فأنا أيضاً كنت يوما ما قوى البصر بيد أن الشيخوخة ليست نعمة على الإطلاق ياعزيزتى ، كل شيء قد طمس ، وقليل من الكتابة فى المساء يثير التهاب العين ويملؤها بالدموع فى الصباح حتى ليخجل المرء أن يراه الغرباء ، ولكن ابتسامتك يا « ملاكى » الصغير كانت تضىء عقلى ! ابتسامتك الحلوة الجميلة ! .

وملأ قلبى الشعور الذى به أحسست يوم قبلتك : أتذكرين ؟ بل

لقد بدا لى أنك تزجرينى بإصبعك الصغيرة . والآن : هل كنت تفعلين ذلك حقا ؟ يجب أن تخبرينى عن كل شيء فى خطابك القادم .

وما رأيك فى حيلتنا الصغيرة مع الستار يا عزيزتى . ؟ رائعة ! أليس كذلك ؟ فأنا فى عملى أو فى نومى أو فى صحوى أستطيع أن أعرف على الفور أنك هناك ، تفكرين فى ، إنك تذكرينى ، إنك سعيدة وبخير . إنزال الستار معناه عندى « طاب مساؤك ياما كار اليكسيفتش » ، وعندما ترتفع فإنها تعنى « سعدت صباحا ياما كار اليكسيفتش ، أتمنى أن تكون قد نمت نوما هادئا . » أو « كيف الحال يا مكار اليكسيفتش — إننى سعيدة وبخير والحمد لله » .

أترين ياعزيزتى كيف حققت هذه الحيلة الغاية منها ، . إنها لتجعل حتى الخطابات لاداعى لها .. إنها حيلة بارعة . أليس كذلك ؟ . إنها فكرتى ، فأنا ماهر فى مثل تلك الأمور — ألا ترين هذا معى ؟

وحينئذ قد أخبرك يا صغيرتى فارفارا اليكسيفنا أنه على عكس ما كنت أتوقع نمت نوما هادئا طوال الليل . وهذا شيء يبعث على الرضا فالإنسان لا ينام جيدا فى أماكن جديدة ، فإذا لم يكن ثمة شيء معين يجعلك لاتنام فهناك شيء آخر .

لقد صحوت هذا الصباح سعيدا نشيطا كالبلبل . وياله من صباح جميل ياعزيزتى ! كانت النافذة مفتوحة على مصراعيها ، والشمس ساطعة ، والطير

تغرد ، وشذا الربيع يملأ الهواء ، والطبيعة كلها مفعمة بالحياة ، وكل شيء في انسجام أيضا ، كل شيء كما ينبغي أن يكون في الربيع ، بل لقد راودت خاطري بعض التأملات الممتعة هذا الصباح ، وكلها تدور حولك ياعزيزتي .

لقد قارنتك بطير صغير في السماء ، خلق لعزاء البشر وجمال الطبيعة... وهنا قفز إلى ذهني يافارنكا أننا نحن البشر : نعيش في ضيق وقلق ، ولذلك يجب أن نحسد الطير : البريئة المنطلقة في السماء . .

وهكذا أخذت أعقد في هذا المجال مقارنات سعيدة غامضة ، وكان معي كتاب يافارنكا ، وفيه ستجدين أشياء كثيرة من هذا النوع ، وبتفصيل أكثر أيضاً . كل أنواع الأحلام تواردت إلى عقلي ياعزيزتي ، ولا أستطيع إلا أن أكتب عنها . والآن . وقد أقبل الربيع أراها مبهجة مسلية رقيقة ، وكلها في هالة وردية . هذا هو السبب في أنني أكتب مثل هذا ، ولكن أصارحك بالحقيقة إنها : كلها من الكتاب ، إن أحلام المؤلف مثل أحلامي ، وكلها شعر إذ يقول :

ليتني كنت طيرا في السماء يقتنص ما يشاء !

. . . وهكذا يسترسل في شعره . وهناك أفكار أخرى أيضاً . ولكن دعينا من هذا . أفضل أن تخبريني أين ذهبت هذا الصباح يافارفارا اليكسيفنا ، فقد كنت على وشك الذهاب إلى عملي عندما خرجت نشيطة مرحة من غرفتك ، وكان مجرد النظر إليك متعة .

آه يا فارنكا ـ فارنكا لاتبتئسى . . إن الدموع لاتفيد . . صدقينى ياحبيبتى فقد تعلمت ذلك عن تجربة ، ومع هذا فأنت بخير الآن ، وصحتك أفضل . وكيف حال فيدورا ؟ أية امرأة صالحة هى ! . أكتبى لى يا فارنكا، وخبرينى كيف تعيشان معا ؟ هل كل شىء على ما يرام ؟ إن فيدورا تغضب أحيانا ، ولكن لا تهتمى ، إنها امرأة صالحة . . ليباركما الله

لقد كتبت من قبل عن تريزا ، إنها امرأة صالحة شريفة أيضا . . . لقد كنت قلقا جدا ، كيف نتبادل الخطابات ؟ وهنا لحسن الحظ أرسل إلينا الله تريزا ، إنها روح عطوف ، وديعة كريمة ، ولكن ربة الدار قاسية ، فهى تحملها من العمل فوق طاقتها . .

. . ياله من مكان ذلك الذى انتهيت إليه يافارفارا أليكسيفنا ! ياله من كوخ وياله من مسكن ؟ لقد تعودت أن أعيش كراهب كما تعلمين ، كان ذلك هادئاً ساكنا حتى لتستطيعى أن تسمعى طنين ذبابة. أما هنا فضجة وصراخ وشغب، ولكنى لم أخبرك كيف حال المكان هنا ، ماعليك إلا أن تتخيلى دهليزاً طويلا جدا مظلماً قذرا ، وجدارا عاريا على اليمين ، وصفاً من الأبواب على الشمال كأننا فى غرف يؤجرها شخص أو اثنان أو ثلاثة، إنها فوضى . . فلك نوح حقا ، ومع هذا فهم يبدون كما لو كانوا أناسا طيبين ، وذوى نشأة راقية وتعليم عال .

. أحدهم كاتب [له صلة بالأدب بطريقة ما] كثير الإطلاع ، يعرف

الشيء الكثير عن هوميروس وبرامبيوس(١) إنه أنواع المخطوطات والمؤلفات الأخرى — وعن كل شيء رجل ذكي .

ثم هناك ضابطان من الجيش يلعبان الورق دائما ، وضابط بحرى أيضا ، ومدرس لغة إنجليزية . . ولكن انتظرى خطابى التالى ياعزيزتى. سأصفهم بطريقة لاذعة كى أسليك ، سأصفهم كما هم بالتفصيل .

أما ربة الدار فامرأة عجوز ضئيلة خرقاء ، تتجول بقفطان وشبشب وتصيح فى وجه تريزا طوال النهار . إننى أعيش فى المطبخ ، أو ما يشبه المطبخ وإلى جوار المطبخ مباشرة هناك غرفة [ويجب أن أقول إن مطبخنا مطبخ جيد تماما . نظيف ولامع] : والغرفة ليست كبيرة ، بجرد جحر ، أو لعلنى يجب أن أقول : إن المطبخ كبير وله ثلاث نوافذ ، وهو مقسم ليكون غرفة أخرى : مسكنا إضافيا . إنه واسع مريح وله نافذة . وهناك أعيش أنا . وباختصار كل شيء مرض تماما . والآن لا تظنى أننى أعنى شيئا من وراء هذا كله ، ولكن بجرد ، أن أبين أن الغرفة جزء من المطبخ ، وإن كنت أعيش فى هذه الغرفة خلف الحاجز فإن هذا لا يهم ؛ فلى وحدتى . وعزلتى ، وأعيش فى هدوء ووحدة .

«١» بارون برامبيوس — وهو الاسم المستعار للكاتب الشهير سنكوفسكى .

أما الأثاث ، فعندي سرير ومنضدة وصندوق ذو أدراج وكرسيان. وقد نصبت أيقونة أيضاً. صحيح أنه قد توجد غرف أفضل من هذه ولربما أفضل منها بكثير . ولكن الشيء الجوهري هو الراحة . أليس كذلك ؟ ولهذا فقد عملت هذا كله من أجل الراحة ، ولا تظني أنني أعني شيئاً آخر .

ونافذتك على الطرف الآخر من الفناء مباشرة ، والفناء ضيق ، وأستطيع أن أراك تمرين ؛ كل هـــذا سيكون أكثر متعة لرجل وحيد وأرخص أيضاً . ؛ فأجمل غرفة في المنزل تتكلف خمسة وثلاثين من الروبلات ، مع المآكل . وهذا أكثر مما أطيق أ ما غرفتي فتكلفني أربعة وعشرين روبلا ونصف الروبل مع المآكل ، على حين كنت أدفع قبل ذلك ثلاثين كاملة ، فاضطررت أن أحرم نفسي أشياء كثيرة .

وقد كنت فيما مضى لا أستطيع أن أشترى الشاى دائماً ، أما الآن فأستطيع أن أوفر الكثير كي يكون عندي الشاي والسكر ، لست أدري كيف أخجل من أن أعيش بدون الشاي ياعزيزتي ؛ فكل شخص محترم هنا ، وهذا محرج ، بل إن هذا هو السبب الذي يدفع الإنسان إلى شرب الشاي ياعزيزتي : من أجل الآخرين — من أجل المظاهر ، من أجل الظهور بمظهر لائق ، أمام الناس . ولولا هذا ما اهتممت ، فلست من النوع الذي تثيره التوافه . وإذا ما احتجزت بعض المال من أجل «الطوارىء» ،

من أجل حـــذاء أو قطعة من ملبس ، فماذا سيبقى ؟ وهكذا يتلاشى مرتبي كله .

وليس معنى هذا إطلاقاً أنني أشكو ؛ فلقد كان مرتبي يكفيني طوال السنين الماضية ، بل أحياناً أتلقى علاوات أيضاً .

وأخيراً ، إلى اللقاء «ياملاكي» لقد اشتريت لك بضعة أوعية من الريحان والجيرانيوم * ، لقد كانت رخيصة . ولربما كنت مغرمة « بالترحنة » .. إن عندهم « ترحنة » أيضاً . وسأحضرها بمجرد أن تكتبي إلى ، ولكن أرجو أن تكتبي كل شي بتفصيل أكثر .

وقبل أن أنسى ياعزيزتي ، لاتفكري كثيرا ، لا تدعي الهواجس تساورك من ناحيتي لأنني استأجرت غرفة مثل هذه ؛ فإن رغبتي في الراحة وحدها هي التي دفعتني إلى ذلك ، ولا شيء غير الراحة . إنني أدخر النقود ياحبيبتي ، وأعدها كي أكسو العش بالريش ، وقد أبدو كما لو كانت ذبابة تستطيع أن تسقطني بجناحها ولكن فكري جيداً : إنني لست من هذا النوع . إنني أعرف من أنا ؟ إن لي خلق رجل حازم وفي روحه صفاء . . إلى اللقاء يا « ملاكي » الصغير ، لقد وجدت أنني كتبت صحيفتين كاملتين ، وكان الواجب أن أبدأ العمل منذ

---

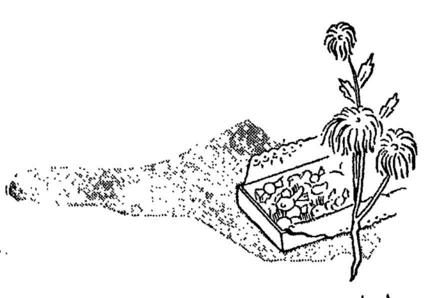
* هو نوع من نبات الجيبزى الإفرنكية .

وقت طويل ، إننى أقبل أصابعك الرقيقة ياحياتى وسأظل . .

خادمك المتواضع وأخلص الأصدقاء

ماكار ديفشسكين

ملاحظة : شيء واحد أرجوه منك : اكتبي إلى ياعزيزتى بتفصيل بقدر الإمكان ، إننى أرسل إليك رطلا من الحلوى يافارنكا ، أتعشم أن تتمتعى بها ، وأستحلفك بالله ألا يساورك القلق من ناحيتى ؛ وهكذا . . مرة أخرى .. وداعاً ياحبيبتى .



٨ من إبريل

عزيزى ماكار اليكسيفتش

أخشى أن أراني مضطرة قبل كل شيء أن أتشاجر معك . أؤكد لك ياصديق ماكار اليكسيفتش أنه يصعب على حقاً أن أتقبل هداياك وأنا أعلم كم كلفتك ، وأى حرمان وأى إنكار للذات تقاسيه . وكم من مرة أخبرتك أننى لاأحتاج إلى شيء على الإطلاق ، أنت تعلم أننى لاأستطيع ن أجزيك على عطفك الذى تغمرنى به .

لماذا أرسلت هذه الأزهار ، فرع من الريحان ربما لايهم ، ولكن لماذا أرسلت الجيرانيوم؟.. ماعلى المرء إلاأن تفلت منه كلمة كما فعلت أنا. عن الجيرانيوم لتهرع أنت وتشتريها . ولابد أنها غالية . ولكنها جميلة . صلبان حمر من الأزهار . من أين ياترى جئت بها ؟ . . لقد وضعتها فى أبرز مكان من النافذة . وسأضع رفاً تحتها ، وسأضع على الرف أزهاراً أخرى فقط : انتظر حتى أصيب شيئاً من الثراء . إن فيدورا لاتمل النظر إليها . إنها كالفردوس : نظيفة لامعة .

ولكن لماذا الحلوى ؟ إن خطابك جعلنى أشعر أن شيئاً ما على غير مايرام، ففيه الشيء الكثير من الجنة : والربيع والشذى والطيور المغردة . وقد كنت واثقة من أن خطاباك سيحوى شعراً أيضاً ، كان يجب أن تكتب بعض الأشعار ياماكار اليكسيفتش . فقد كان كل شيء موجوداً : المشاعر الرقيقة والأحلام الوردية ، وكل شيء .

أما عن الستار فإنني لم أفكر فيها أبداً . ولعلها علقت عندما كنت أرتب الأزهار .

آه ياماكار اليكسيفتش : لايهمنى ماتقول، ولا كيف تحاول إقناعى بأنك أنفقت نقودك كلها فى شراء حاجاتك الشخصية، فأنت لاتستطيع أن تخفى عنى شيئاً ، وأستطيع أن أرى أنك تحرم نفسك كل ضرورياتك من أجلى.

فما الذى جعلك تستأجر غرفة كهذه تشعر فيها دائماً بالضيق والتعب وتشعر فيها أنك مقيد غير مستريح؟ إنك مغرم بالعزلة ، وهذا هو الشيء الوحيد الذى لن تجده هناك. وأنت تستطيع أن تعيش عيشة أفضل بمرتب مثل مرتبك . ففيدورا تقول : إنك كنت تعيش أفضل من هذا بكثير . أمن المعقول أن تكون قد أنفقت حياتك كلها وحيداً ، فى عوز وكآبة ، دون كلمة من صديق ، وفى أركان غريبة يؤجرها لك الغرباء ؟

أيها الصديق العطوف ، كيف يتألم قلبي من أجلك ؟ ولكن حاول على الأقل أن تحافظ على صحتك يا ماكار أليكسيفتش . أنت تقول إن عينيك تتأذيان من الكتابة على ضوء شمعة ، إذن لماذا تفعل هذا ؟ . من المؤكد

أن رؤساءك يعرفون أى مجتهد أنت ؟ فالحق أنك لكذلك .

مرة أخرى أرجوك ألا تنفق نقودك كذلك من أجلى . إننى أعرف أنك تحبنى ، ولكنك لست غنيا . فى هذا الصباح استيقظت أنا أيضا منشرحة الصدر ، وشعرت بسعادة عظيمة تغمرنى . وكانت فيدورا تعمل لفترة طويلة ، وأحضرت عملا لى أيضا ، وقد جعلنى هذا سعيدة جدا ، وقد ذهبت لأشترى بعض الحرير ، ثم بدأت عملى . وكنت أشعر طوال الصباح بسعادة ومرح يملآن قلبى ، لكنى حزينة الآن وقلبى مثقل بالهموم .

ماذا سيحدث لى ؟ ماذا ينتظرنى فى المستقبل ؟ من المؤلم حقا أن يكون المرء قلقا ، وألا يكون لديه آمال ، بل حتى ولا فكرة ضئيلة عما سيحدث . أما الماضى فقد كان مريرا جدا حتى أن مجرد تذكره يحطم قلبى سأبكى حتى نهاية أيامى من هؤلاء الأشرار الذين حطموا حياتى .

الظلام يقبل ، ويجب أن أبدأ العمل ، وكنت أحب أن أطيل فى الكتابة أكثر من ذلك ولكن لا وقت عندى ، والعمل عاجل ، ويجب أن أسرع به .

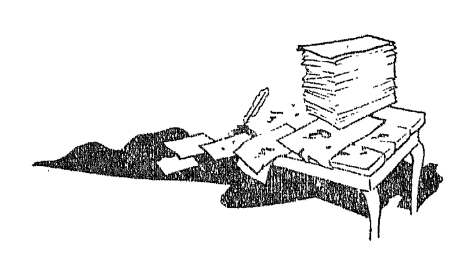
من الطبيعى أن تكون كتابة الخطابات شيئا لطيفا إذ يشعر المرء أنه ليس وحيدا ولكن لماذا لا تأتى إلينا أبدا ، لماذا يا ماكار أليكسيفتش ؟ والمسافة ليست بعيدة الآن ، وبالتأكيد ستجد الوقت للمجىء . أرجوك تعال . . . لقد رأيت الآن فقط عزيزتك تريزا . كانت تبدو

مريضة جدا ، وشعرت بالأسف من أجلها حتى أننى أعطيتها عشرين كوبكا .

أوه لقد كدت أنسى . . أرجو أن تتحدث إلى بالتفصيل عن نوع الحياة التى تحياها . وعن الناس الذين تخالطهم ، وما هى الطريقة التى تعاشرهم بها . . تأكد من أنك لم تترك كبيرة أو صغيرة إلا ذكرتها .. والليلة سوف أترك فتحة صغيرة عند ركن من أركان الستار خصيصا من أجلك . . فاذهب إلى فراشك مبكراً . . فقد شاهدت بالأمس شمعتك موقدة حتى منتصف الليل تقريبا . . حسنا . . إلى اللقاء ! إننى أشعر الآن كأنى حزينة مكدودة وحيدة . . لعل ذلك نتيجة لليوم الذى عانيناه . . فإلى اللقاء .

صديقتك

فافارا دوبروسيلوفا



٨ أبريل

عزيزتى فارفارا أليكسيفنا

أجل يا عزيزتى وحبيبتى .. هذا هو اليوم الذى كان من نصيبنا التعس .
ولا شك أنك قد استوفيت نصيبك من السخرية بعجوز مثلى يا فارفارا أليكسيفنا ! ولكنها غلطتى . . غلطتى وحدى . . رجل عجوز مثلى لم تتبق فى رأسه غير شعيرات قلائل يتعرض لكيوبيد وللعواطف ! ومع ذلك سأقول هذا ... يا أعز مخلوق لدى — إن الإنسان مخلوق غريب فى بعض الأحيان فإنه يتحدث عن تفاهات مخيفة ، ويصل إلى أبعد الآماد . ثم ماذا ينشأ عن هذا كله ؟ وماذا يعقب ذلك ؟ لاشىء على الإطلاق اللهم إلا هذا الهراء الذى ادعو الله أن يحفظنا منه ! إننى لست حانقا ياحبيبتى ، وإنما أشعر بالضيق كلما فكرت أنه ما كان ينبغى على أن أكتب إليك بهذه الطريقة المنمقة الحمقاء .

واليوم ذهبت إلى عملى سعيداً كأنى أحد الملوك ـ كان قلبى مفعما بالضياء ، وروحى عامرة بالسكينة . وعكفت على أوراقى متحمساً فى بداية الأمر

ولكن عندما نظرت حولى بعد ذلك كان كل شىء جافا كئيبا كسابق عهده : بقع الحبر والمناضد والأوراق كلها كما هى .. حتى أنا أيضاً كنت كما أنا .. إذن لماذا جنح خيالى وامتطيت ظهر بيجاسوس ؟ ما الذى جعلنى أرتكب مثل هذا العمل ؟ . . الآن الشمس أضاءت من فوق ، وأحالت السماء إلى زرقة ، وأى ضياء أو شذا كان هناك عند ما كان يحدث ما يحدث فى الفناء تحت نوافذنا . . ؟ لابد أن هذا كله قد بعثه خيالى الأحمق ، وقد يشرد المرء أحيانا حتى لينسى نفسه ! . . بمجرد إفراط فى حماس أخرق !!

ولكن هذا المساء . . وأنا فى طريق إلى منزلى كنت أجر نفسى . وفضلا عن ذلك أخذ رأسى يؤلمنى لسبب أو لآخر . إن الأشياء تتعاقب دائما الواحد إثر الآخر : لعلها الريح قد آلمت ظهرى : فقد كنت فرحاً بالربيع حتى إننى وأنا على ما أنا عليه من حماقة قد خرجت فى معطف خفيف .

دعينى أقل يافارفارا إنك أخطأت فهم مشاعرى أخطأت فهمها جميعا ، كانت عاطفة أبوية ، بمجرد عاطفة أبوية يافارفارا . فنى يتملك الموحش أخذت مكان والدك ، أقول هذا بكل إخلاص كما ينبغى أن يقول قريب من أهلك ؛ فما أنا بعد كل هذا إلا قريب بعيد ، ألست كذلك ؟ . . . قريب بعيد جداً طبعا ، ولكنى مع هذا قريب منك . والآن أصبحت أقرب الناس إليك ، وأول من يقوم على حمايتك ؛

لأنه حينما كان يجب أن تجدى المساعدة والحماية وجدت الخيانة والإهانة، أما عن الأسفار فالحق ياعزيزتى أنها لا تناسب رجلا مثل سنى أن ينكب على صناعة الشعر. والشعر — يافتاتى — عبث. عبث يضرب من أجله الصغار فى المدارس هذه الايام. هذا رأيى فيه ياعزيزتى.

لماذا تكتبين عن الراحة والسلام وكل الأشياء الأخرى يافارفارا ؟ لست بالمتأنق، ولا أحتاج إلا إلى القليل، ولم أكن أبدا أحسن مما أنا عليه الآن. ولماذا أكون مدققا فى شيخوختى ؟ لدى من الطعام مايكفينى، ولدى بعض الملابس والأحذية، لماذا اهتم بالمظاهر وأنا لم أنحدر من سلالة الأمراء ؟ . . — كلا ، لم يكن أبى من النبلاء، كان يعول أسرة بدخل أقل من دخلى. وما أنا بالمترف، لكن مع هذا — إذا كان لابد للحقيقة من أن تقال — فإن مسكنى القديم أفضل من الحالى بكثير، كان شعورى بالمسكن أعمق مما هو الآن ، إن غرفتى الحالية مناسبة طبعا، بل أكثر بهجة من بعض النواحى، بل إذا شئت الحق فهى خفيفة الظل ؛ ولا أستطيع أن أنتقص من قدرها ، ولكنى أحن إلى غرفتى القديمة أيضا . فنحن العجائز نتعلق بالأشياء . كانت الغرفة صغيرة كما تعرفين، أما — الجدران — حسنا — فكانت طبعا كأية جدران أخرى. إن الجدران لاقيمة لها. إنها الذكريات التى تجعلنى حزينا. والغريب أنها تحزننى لمجرد أنها ذكريات بهيجة فى ذاتها حتى الأشياء التى كانت كريهة والتى كنت أضيق بها يوما ما تبدو الآن

جميلة رائعة .. كنا نعيش هناك فى هدوء ، أنا والسيدة العجوز التى ماتت .. ! ! إن ذكراها لتثير شجنى أيضا ، كانت امرأة طيبة ولم تكن تغالى مطلقا فى إيجار غرفها ، وكانت دائما ترقع الأغطية بإبر طويلة جداً ، وكنا نشترك فى ضوء شمعة واحدة ، وهكذا كنا نعمل على المنضدة، نفسها . ولا بد أن حفيدتها « ماشا » قد بلغت الثالثة عشرة الآن مع أنى لا أستطيع أن أتذكرها الا كطفلة . . وكم كانت شقية دائما تعبث بشىء ما وكم كانت تضحكنا .

وهكذا عاش ثلاثتنا : خلال ليالى الشتاء الطويلة ، كنا نتناول الشاى حول المائدة المستديرة على حين تروى العجوز من القصص ما يسلى الطفلة ويصرفها عن عبثها . ويالها من قصص لم تكن للطفل فحسب بل الكبير والعجوز أيضاً قد ينسيان نفسيهما حين يستمعان إليها ، حتى أنا كنت أجلس أدخن غليونى وأستمع إليها ، حتى لأنسى كل شىء عن عملى .

والطفلة — هذه القطة الصغيرة من العبث — كانت تسند وجهها الوردى الجميل إلى يديها الدقيقتين ، وقد فغرت فاها الجميل ، أما إذا كانت القصة مخيفة فانها كانت تلتصق بجدتها ! وكم كان يسعدنا أن نتأملها عندئذ . وهناك . . كنا نجلس فننسى كل شىء : ارتعاش الشمعة ، والريح تعصف فى الفناء . . وصوت الجليد يتساقط .

كانت الحياة جميلة حقا ياعزيزتى : عشرون عاما عشناها معاً على هذا المنوال . . . ولكن قد أطلت . ولعل الموضوع لا يشوقك أبدا . وأنا أيضاً لا أجد الأمر ممتعاً حينما أفكر فيه ، وخاصة الآن .

الظلام ينتشر . وتيريزا تثرثر فى بعض الموضوعات ورأسى يثقله الصداع ، وظهرى يؤلمنى قليلا ، وأفكارى غريبة هائمة ، حتى لكأنما هى أيضاً تتألم . إننى حزين اليوم يا فتاتى .

ولكن ماهذا الذى كتبت يا عزيزتى . كيف أذهب لزيارتك ؟ وماذا سيقول الناس ؟ فإذا ما اخترقت الفناء ثارت الأسئله . ثم الأحاديث . ثم الإشاعات . وسيقولون كل ما يمكن من أخطاء !

كلا ، يا « ملاكى » الصغير ، من الأفضل أن أراك غدا فى صلاة العشاء . . هذا أفضل . . وأقل مجلبة للضرر

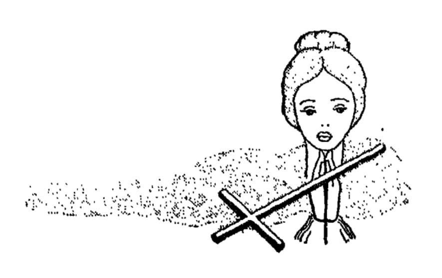
أرجو أن تغفرى لى كتابة مثل هذا الخطاب ، فبعد أن قرأته مرة أخرى رأيت أنه يتألف كله من تفاهات غريبة . إننى رجـــل عجوز ياعزيزتى ، عجوز جاهل ، وحينما كنت صغيرا كان حظى من التعليم ضئيلا ، والآن حتى لو حاولت أن اتعلم من جديد لم يعلق بذهنى شىء . وأصارحك بالقول ياعزيزتى أنى لست ماهرا فى وصف الأشياء . وأنا أعلم أنى حينما أحاول ان أعبر عن الأشياء بطريقة أكثر جمالا لا أفلح

إلا فى كتابة مجموعة من اللغو . أعلم هذا جيدا دون حاجة إلى أن يخبرنى أحد أو يسخر منى مخلوق . لقد رأيتك اليوم وأنت تغلقين نافذتك .

وداعا ، وداعا ، وليحفظك الله يافارفارا اليكسفنا..

صديقك المخلص
ماكار دوفشكين

ملاحظة : لا أستطيع ياعزيزتى أن أكتب ساخرا عن أى مخلوق ، فأنا كهل عجوز لايليق بى أن أعبث وأسخر يافارفارا . وسيضحك الناس منى إذ يتذكرون المثل الروسى القديم . . . « من حفر لأخيه حفرة وقع فيها » .



٩ من أبريل :

عزيزى ماكاراليكسيفتش

ألا تخجل من استسلامك لمثل هذه الأهواء والنوبات يا صديقى وصاحب الفضل على ؟ . أيمكن أن أكون قد آلمتك حقا ؟ أعلم أن تفكيرى يطيش فى أغلب الأحيان ولكنى لم أتخيل أبدا أنك قد تفهم كلماتى على أنها سخرية منك . وأؤكد لك أننى لا أستطيع أن أجعل من سنك أو من شخصيتك موضع سخرية إنها مجرد جهالة منى ، أضف إلى هذا أننى أحس اليوم بسآمة بالغة وأنت تعلم مدى ما تفعله السآمة بالمرء . وأصرح لك بالحقيقة ، تلك هى أننى ظننت أنك كنت تتفكه فى خطابك وقد انقبض قلبى عندما رأيتك حزينا . وأنت تظلمنى يا صديقى إذا ظننت فى تبلد الإحساس أو جحود المعروف .

إننى أقدر لك جيدا ما فعلته من أجلى حينما قمت بحمايتى من أعدائى ومن كراهيتهم واضطهادهم لى . سأصلى من أجلك دائما ، فإذا استجاب

الله لدعواتى، فستعيش سعيدا !!.

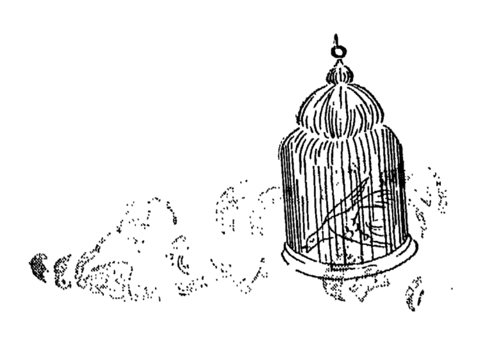
إننى مريضة اليوم ، وتنتابنى نوبات من الارتعاش وارتفاع الحرارة مما يقلق فيدورا .

وينبغى ألا تخجل من أن تأتى لزيارتى يا ماكار ، ولا تحسب للناس حسابا ؛ فليهتموا بشئونهم .

وداعا يا ماكار ، لقد قلت كل ما يجب أن يقال ، ولا أستطيع أن أزيد . مرة أخرى لا تغضب منى وثق من احترامى الدائم وحبى .

خادمتك المطيعة

فارفارا



١٢ من أبريل .

عزيزتى فارفارا ...

ماذا ألم بك يا عزيزتى ؟ أى خطأ حدث ؟ . إنك لتفزعيننى دائماً ، وفى كل خطاب أتوسل وأضرع إليك أن تحرصى على صحتك ، وأن تعنى بتدفئة نفسك جيدا وأن تمكثى بالمنزل إذا ما اربد « الطقس » وأن تحتاطى لكل شىء . ولكنك تعصيننى « يا ملاكى » الحبيب كأى طفل صغير . إننى أعلم أنك رقيقة كعود من العشب ، وأقل برد يلزمك الفراش . هلا التزمت الحرص أيتها العزيزة واعتنيت بنفسك حتى تتجنبى كل شىء خطير وتوفرى عن أصدقائك مئونة الأسى والقلق .

تريدين أن تعرفى كل شىء عن حياتى اليومية وعن جيرانى ؟ ـ بكل سرور يا حبيبتى ولكن دعينى أبدأ من البداية : فدرج المنزل الأمامى

أنيق حقا ، وخاصة الدرج الرئيسى : إنه لامع ونظيف ورحب ، « والدرابزين » من خشب الماهوجانى المحلى بالمعدن . أما الدرج الخلفى فكلما قل ما يقال عنها كان ذلك أفضل . إنها لتلتوى كالحية ، رطبة عفنة والدرجات محطمة ، والحوائط قذرة لزجة حتى لتلتصق أصابعك بها إذا ما لمستها ، وأمام كل « شقة » أكوام عالية من الصناديق والكراسى القديمة وأحبال للغسيل . ومعظم النوافذ مكسورة ، وفى كل مكان صفائح مملوءة بالقاذورات والشحم وقشر البيض وأشواك السمك . والرائحة عفنة كريهة لا تطاق .

أما عن الغرف فقد أخبرتك كيف نظمت - مريحة حقا ولكنها ذات رائحة أيضا . لست أعنى القول بأنها كريهة الرائحة فعلا ، ولكن رائحتها ليست مما يستساغ ، وهى مزعجة فى البداية ، ولكن لا يلبث المرء أن يألفها فى دقائق معدودات ؛ ذلك أن كل شىء هنا له رائحتـــه الخاصة حتى الملابس والأيدى . غير أن عصافير الكنارى سرعان ما تموت هنا . وقد اشترى الضابط البحرى الذى يعيش هنا عصفوره الخامس اليوم فحسب ، ولكن الكنارى لا تستطيع تحمل الهواء هنا . والجو كريه فى الصباح عندما يطبخ السمك واللحم ، ويمتلىء المطبخ بالقاذورات ، ولكنه جميل فى المساء : إذ يصبح المطبخ لامعا رحبا مليئا بالغسيل القديم الذى علق ليجف . وقد تثير الرائحة شيئا من الضيق ، لأن حجرتى مجاورة للمطبخ . ولكن لا يروعك هذا كله ، إذ يستطيع المرء أن يألفه إذا ما عاش هنا مدة كافية .

والمنزل يموج بالحركة منذ الصباح الباكر الكل يستيقظون ويتجولون فى الدار سواء من كان لديه عمل أو من لم يكن لديه ، ونحن نتناول الشاى معاً جميعاً ، ومعظم مواقد الشاى « ساموفار » تمتلكها ربة الدار ولا يوجد مايكفى منها . فعلى كل أن ينتظر دوره ، وإذا ماحاول شخص منا أن يتعدى دوره انقضت عليه المجموعة كلها ثائرة. وقد حدث لى هذا فى المرة الأولى وإن كان هذا لايستحق الذكر ، وفى هذه المناسبة تعرفت على الجميع ، وكان أولهم الضابط البحرى . وهو روح ودود فقد أخبرنى بكل شىء عن أبيه وأمه وأخته [وهى متزوجة ضابطا فى تولا] وأخبرنى كذلك عن مدينة كرونستاد ، وقد عرض على حمايته ثم دعانى إلى الشاى من وقت لآخر . ووجدته فى غرفة لاينتهى فيها لعب الورق أبدا . وبعد أن تناولنا الشاى ألحوا على فى الانضمام إليهم ، ولست أدرى أكانوا جادين فى هذا أم عابثين، كانوا يلعبون طيلة ليلهم واستمروا يلعبون عند ما دخلت عليهم . وقد وجدت الأوراق توزع والطباشير يكتب ورائحة الطباق تملأ جو الغرفة. وعند ما رفضت المقامرة طلبوا منى أن أكف عن الفلسفة ، ثم لم يحاذبنى الحديث شخص قط — والحق أننى لم أكترث لهذا ، ولن أذهب اليهم بعد ذلك أبدا ، فماهم الا مقامرون . . ألحق أنهم كذلك . مقامرون . أما « الأديب » فهو ينظم الحفلات فى غرفته أيضا ، ولكنها حفلات بريئة محترمة شائقة وعلى مستوى رفيع .

وأضيف إلى هذا يافارنكا أن ربة الدار امرأة عجوز شريرة ، ولقد رأيت أنت تريزا وتعلمين كم هى نحيلة حتى لكأنها دجاجة عجفاء . وهنا خادمان فحسب : تريزا وفالدونى ، ولربما كان لفالدونى اسم آخر ، ولكنه يجيب من يناديه بفالدونى ، وهكذا يناديه الكل بفالدونى ، وهو أحمر الشعر بطىء الفهم معقوف الأنف وفى شجار دائم مع تريزا حتى ليكادا أن يتبادلا اللكمات أحياناً .

وبوجه عام فالحق أقول إن الحيـــاة هنا ليست ممتعة أبداً . وهم لا ينامون جميعا فى وقت واحد ، فبعضهم يلعب الورق دائما ؛ بل تحدث أحيانا أشياء أخجل من ذكرها . لقد ألفتها ولكنى لا أستطيع أن أمنع نفسى عن التعجب : كيف تستطيع عائلة أن تعيش وسط هذه الفضائح ؟ فهنا عائلة فقيرة تسكن الغرفة التى تقع على الجانب الآخر من القاعة ، حجرة فى ركن منزو حتى توشك أن تكون منفصلة عن غيرها ، وأفرادها قوم هادئون يكاد لا يلحظهم أحد ، يعيشون فى صمت عجيب . والأب — واسمه جورشكوف كاتب عاطل فصل لسبب ما من وظيفته منذ سنوات سبع . وهو رجل ضئيل أشيب الشعر ، رث الثياب حتى ليتألم المرء من مجرد النظر إليه . ومعطفه أسوأ حتى من معطفى .

ونحن نتقابل فى الدهليز أحيانا وتختلج ركبتاه حين يمشى وترتعش يداه ورأسه أيضا من مرض يعانيه أو لسبب آخر لا يعلمه إلا الله . وهو ينطوى على نفسه خجلا من الجميع غارقا فى عزلته . ولعلنى أبدو

خجلا أنا أيضا ولكنه أكثر خجلا منى . وله زوج وأطفال ثلاثة أكبرهم ضئيل نحيل مثل أبيه ، أما الزوج فلا بد أنها كانت جميلة ذات يوم ، فإن المرء ليستطيع أن يرى آثار جمالها حتى اليوم . ولكن المسكينة لاترتدى إلا الحزن أيضا ، ولقد بلغنى أنهم متأخرون عن دفع الإيجار ، ومهما يكن من أمر فصاحبة الدار لاتعطف عليهم أبدا .

وبلغنى أيضا أن جورشكوف قد فقد وظيفته بسبب شيء ما يتعلق بتحقيق أو قضية لاأدرى بالضبط ، ولكنهم فقراء . يا إلهى ،كم هم فقراء!! إن صوتا واحداً لايصدر عن غرفتهم أبداً وكأنما لايعيش فيها أحد . حتى الأطفال لايصدر عنهم صوت ! ولم أرهم قط يعبثون أو يلعبون وهذا نذير سوء . .

وذات مساء . . والمنزل ساكن على غير العادة ، تصادف أن مررت ببابهم فسمعت شهقة بكاء ثم همسات ثم شهقات أخرى وكان يبدو أن شخصا ما يبكى بحرقة ومرارة حتى لقد حطم بكاؤه قلبى . وظللت أفكر فيهم طوال الليل حتى جفانى النوم .

أخيرا ، وداعا يافارنكا يافتـــاتى الصغيرة التى لاتقدر بثمن . لقد وصفت كل شيء على قدر ما استطعت . لقد ظللت أفكر فيك وفيك وحدك طيلة يومى والقلق يملؤنى عليك ياحبيبتى ، إننى أعرف أنك بحاجة إلى معطف يدفئك فى الربيـــع فى بطرسبرج برياحه وأمطاره

وثلوجه — إننى أخشاها يافارنكا ، وليتقذنا الله من هذا الفصل المتقلب. ولا تغضبك ياعزيزتى الطريقة التى أكتب بها . فلست أتمتع بأسلوب — لست أتمتع بأسلوب على الإطلاق ، وليتنى كنت ذا أسلوب ، إننى أكتب ما يرد إلى خاطرى ورجائى أن أبهجك قليلا . ولو كنت قد نلت قسطا وافيا من التعليم لاختلف الأمر ، ولكن أى نوع من التعليم نلته ؟ ما يساوى كوبك لا أكثر !

صديقك المخلص

ماكار دوفشكين



٢٥ من أبريل

عزيزى ماكار . .

قابلت اليوم بنت عمتى « ساشا » كان منظرها مروعا ؛ إنها فى طريقها إلى الفناء .

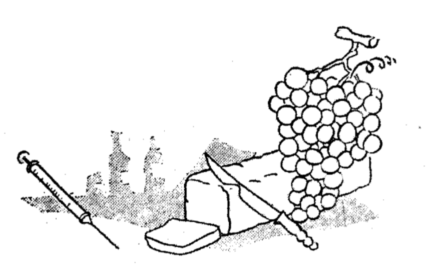
وقد بلغتنى شائعات أيضاً أن آنافيدورفنا تقوم بتحرياتها عنى . ألا تتركنى هذه المرأة فى حالى أبداً . . ؟ إنها تريد أن تصفح عنى . وأن تغض الطرف عما سلف وفى نيتها أن تزورنى قريبا . وهى تزعم أنك لست قريباً لى وأنها أقرب إلى ، وأنه ليس لك الحق أن تتدخل فى شئون عائلتنا ، وأنه يجب أن ينتابنى الخزى لأنى أعيش على عطفك وإحسانك . وهى تزعم أنى قد نسيت كرم ضيافتها ، ونسيت أنها هى التى انقذت أمى وأنقذتنى من الهلاك جوعا ، وظلت سنتين ونصف السنة تنفق على رعايتنا وإطعامنا . وأنها على الرغم من هذا كله تريد أن تتنازل

عن ديوننا . . ولم ترحم حتى والدتى المسكينة . . آه لو تستطيع أمى أن تعرف ما فعلوه بى . ولكن الله يرى كل شيء . وآنافيدورفنا تزعم أننى الملومة وحدى إذ أضعت سعادتى التى أرشدتنى هى إلى الطريق اليها . وليس عليها هى من خطأ مادمت لا أستطيع أو ربما لا أرغب أن أنقذ سمعتى إذن بربك خطأ من هذا ؟ ثم هى تقول : إن مستربيكون على حق . وإنه ما من رجل ينتظر منه أن يتزوج امرأه . . . . ولكن ما فائدة كتابة هذا كله . من العسير يا ماكار أن يتحمل المرء افتراءات مثل هذه إننى لا أكاد أعلم ما يحدث لى . إننى أجلس هنا . أرتعش ، وانتهد . . . وأبكى . أتعرف أن كتابة هذا الخطاب قد استغرقت من وقتى ساعتين . لقد كنت واثقة أنها يوماً ماستدرك على الأقل وتعرف بمدى الإساءة التى ألحقتها بى . ولكن هذا أنت !

لا تقلقك صحتى ياصديقى الوحيد ففيدورا تبالغ دائماً ، فلست مريضة إنه مجرد برد خفيف ألم بى أمس عندما ذهبت الى القداس فى فولكونو . لماذا لم تأت معى ؟ . لقد رجوتك أن تفعل .

آه . . ياأمى العزيزة المسكينة . . لو استطعت أن تنهضى من قبرك ، . . لو استطعت أن تعرفى وأن ترى ماذا فعلوا بى ؟ .

ف . و



٢٠ مايو

فارفكا — يا عامتى ...

أرســـل إليك شيئا من العنب يا حياتى ، فالعنب مفيد للناقهين ، والأطباء يوصون به لاطفاء الظمأ ، ولهذا السبب أرسلته ، لمجرد إرواء العطش . وإليك أيضاً شيئا من الخبز الأبيض الذى طلبتيه منى بالأمس المهم كيف حال ميلك للأكل يا عزيزتى . . هذا ما يعنينى قبل كل شىء وشكراً لله ، إن كل شىء قد انتهى وإن متاعبنا تقترب من نهايتها . لنشكر الله على هذا . أما عن الكتب فلم أستطع أن أحصل عليها بعد . إنهم يتحدثون عن كتاب قيم أبدع المؤلف فى كتابته ، إننى لم أقرأه ولكنى سمعت الجميع يمتدحونه ، ووعدوا أن يعيرونى إياه أيضا ، ولكن هل ستقرئينه ؟ فأنت من هذا النوع الذى يصعب إرضاؤه ومن العسير إشباع ذوقك . إننى أعلم هذا جيداً يا عزيزتى ، ومن المؤكد أنك ترغبين فى قراءة شىء شاعرى ،شىء ملىء بالتنهدات والحب . ولكنى مع

هذا سآتى بك بهذا الكتاب وعندهم أيضاً كراسة فيها شعر منسوخ .

اما أنا فبخير وأرجوك ألا تقلقى أبداً يا حبيبتى ، ولا تلقى بالا لما تحدثك به فيدورا ، وقولى لها : إنها ثرثارة عجوز . أخبريها بهذا فحسب . إنى لم أبع كسوة عملى الجديدة ؛ فلماذا أبيعها ؟ وماذا يدفعنى إلى بيعها ؟ وقد ترامى إلى سمعى أنى سأمنح بضع روبلات كأجر إضافى ، إذن فلا تحملى هما يا عزيزتى وأنت تعرفين أن فيدورا ثرثارة . ثرثارة وعصبية . إن أياما سعيدة سوف تقبل علينا ... ولكن يجب أن تهتمى أولا بصحتك أستحلفك بالله أن تهتمى بها ولا تخيبى أمل رجل عجوز .

ويا ترى من أخبرك أنى قد أصبحت هزيلا نحيلا ؟ إنها ثرثرة لا أكثر . . مجرد افتراء . إنى على خير ما يكون . بل لقد أصابتنى سمنة حتى لأخجل من نفسى . وباختصار : إنى أعيش فى بحبوحة .

وداعا يا « ملاكى » المحبوب ، وإننى لألثم أصابعك الصغيرة إصبعا إصبعا وسأظل دائما

صديقك المخلص

ماكار . .

ملاحظة :

ولكن ما هذا الذى تكتبين يا حبيبتى ؟ . كونى عاقلة ! كيف أستطيع ان آتى لزيارتك كثيرا : كيف أستطيع أن أفعل شيئا كهذا ،

لا تتوقعى منى ذلك ، اللهم إلا تحت جنح الظلام . . وأى ظلام يبقى من الليالى فى هذا الفصل . وعندما كنت مريضة تهذين لم أكد أفارق فراش مرضك . أما كيف استطعت أن أفعل هذا فذلك مالا أستطيع فهمه . ولكن كان على أن أتركك خشية ألسنة السوء . وحتى مع هذا فقد أخذت الألسنة تتحدث . إننى أثق كلية فى تريزا . فهى ليست من النوع الثرثار . ولكن تخيلى ماذا سيحدث لو عرفوا أكثر من هذا عنا ، وأى أفكار شريرة وأى أحاديث ستقولونها . ألا صـــبرت يا عزيزتى وانتظرت — حتى تتحسن صحتك — وعندئذ سيكون لنا موعد للقاء . .



الأول من يونيه .

عزيزى المحترم ماكار

طالما تمنيت من أعماق أن أفعل شيئاً تحبه، أن أرضيك بطريقة أرد بها ما أظهرته من إخلاصى فأخذت أفتش فى صندوق أدراجى حتى وجدت هذه المذكرات التى أرسلها إليك . لقد بدأتها فى أيام غامرة بالسعادة ، ثم أكملتها فى فترات متباعدة . ولطالما سألتنى أنت عما سلف من أيامى : عن أبى ، عن بوكروفسكى ، عن حياتى مع آنا فيدورفنا ، ثم عن المتاعب التى عانيت فيها أخيراً ، وكنت متلهفاً على قراءة هذه المذكرات التى سجلت فيها — ولست أدرى لماذا — مناظر متعددة من الماضى كلما سنح لى الوقت . وأنا واثقة أن قراءتها ستبعث السرور إلى نفسك ، أما بالنسبة لى فإن الحزن يعترينى كلما قرأتها ، وأبدو أمام نفسى وكأننى ضعف عمرى عندما كتبت السطور الأخيرة من هذه

المذكرات وداعا ياما كار . إننى منهكة وحيـــدة أقاسى من الأرق ، فيالها من فترة نقاهة متعبة !

ف . د

— ١ —

كنت فى الرابعة عشرة من عمرى عندما مات أبى . وكانت طفولتى أسعد أيام حياتى ؛ إذ كان والدى ناظراً للضياع الواسعة التى يملكها الأمير « ب » فى جبرينا . وهناك فى إحدى قرى الأمير البعيدة . . . عشنا عيشة سعيدة هادئة لايلحظنا فيها أحد . وكنت طفلة دافقة الحيوية أجرى دائما هنا وهناك . فى الحدائق والمراعى والغابات .

أما والدى فكان فى شغل دائم بشئون الضيعة على حين كانت أمى مشغولة بشئون المنزل ، لذا فقد كنت حرة أفعل ماأشاء ، ولم يكن هناك من يعنى بتعليمى ، وكان هـذا يسعدنى . فإذا ماأقبل الصباح الباكر هرعت إلى غدير أو أجمة من شجر أو راقبت قاطعى التبن أو جامعى الحصاد ، غير مكترثة لوهج الشمس أو عابئة بابتعادى كثيراً عن المنزل ، أو عما إذا كانت الشجيرات قد خدشت يدى ووجهى ومزقت ردائى . وما كان يهمنى قط لو عنفونى على هذا فى المنزل بعد ذلك .

ولو أنني قضيت بقية حياتي في هذه القرية لكنت أسعد الناس ، ولكن القدر أراد غير هذا ، إذ كنت لاأزال طفلة في الثانية عشرة من عمري عندما انتقلنا إلى سانت بطرسبرج .. وكم يؤلمني أن أتذكر كيف بدأنا نستعد للرحلة ، وكيف بكيت عندما ودعت كل شيء عزيز علي ، ثم كيف تعلقت برقبة أبي أتضرع إليه أن يبقى قليلا ، فتضايق أبي مني ونهرني على حين بكت أمي قائلة : إنه لا مفر من الرحيل ، فهذا ماتتطلبه أعمال أبي .

وكان الأمير «ب» العجوز قد مات واستغنى ورثته عن خدمات أبي الذي كان قد استثمر قليلا من المال مع بعض ممن يثق فيهم في بطرسبرج وقد رأى له الآن إن وجوده في العاصمة قد يصلح من أحوالنا . وقد أخبرتني أمي بهذا كله فيما بعد . ولما وصلنا إلى العاصمة نزلنا في بطرسبرج ستورونا واستمر بنا المقام هناك حتى وفاة والدي .

وكم كان عسيراً علي أن اعتاد على هذه الحياة الجديدة . لقد وصلنا إلى المدينة في الخريف ، ويوم تركنا القرية كانت الشمس مشرقة والدفء يبث المرح والحياة ، والعمل في الحقول قد انتهى أوكاد . والأرض قد هيئت وبذر فيها الحب ، والطير ترفرف جائعة فوق الرءوس . كان كل شيء مشرقا مليئا بالحياة ، ولكن يوم وصلنا إلى المدينة لم نجد سوى المطر والبرد القارس ، وأوحال الخريف تظللها سماء قاتمة ، وفي الشوارع

جماهير من الغرباء فيهم انطواء وعداء وكآبة وانتهى الأمر بأن استقر بنا المقام بعد كثير من الجهد وكثير من هذه المضايقات التي تصحب عادة تنظيم المنزل . وكنا لانكاد نرى أبي أبدا على حين كانت أمي مشغولة دائماً وهكذا أهملني الجميع. وياله صباح حزين كان صباحي الأول بعد وصولنا كانت نوافذنا تطل على سور أصفر ، ثم شارع لاتجف فيه الأوحال أبدا ، والمارة قليلون كلهم يختبئون في معاطفهم خشية الريح .

وكان منزلنا أيضاً كئيباً مقبضاً طيلة اليوم ، إذا لم يكن لدينا صديق أو قريب تقريباً ، وكان بين أبي وبين آنا فيدورفنا جفـــوة [إذ كان مدينا لها ببعض المال] ، ولم يكن يزورنا عادة سوى من يتصل بهم بصلة العمل،وكانوا يتشاجرون عادة فيتناقشون ويصرخون ، وبعد انصراف مثل هؤلاء الزوار كان أبي دائماً منقبض القلب ، ثائر الأعصاب ، وقد يظل يذرع الغرفة لساعات لاتنتهي ، فلا تجرؤ أمي على خطابه حينئذ ، أما أنا فأنتحي ركناً أجلس فيه وكتابي في يدي ، في هدوء .

وما انقضت على وصولنا إلى بطرسبورج أشهر ثلاثة حتى أرسلوني إلى مدرسة داخلية ، فياله من وقت حزين قضيته بين الغرباء ، كانوا كلهم نفورين : المدرسون يصيحون دائماً ، والفتيات يهزأن بي على حين كان السأم يتملكني . كل شيء كان يمضي صارماً وفق مواعيد دقيقة : هناك ساعات محدودة لكل شيء . لتناول الوجبـــات العامة ، ولاستذكار دروسنا التي كانت تمضي في كآبة تعذبني وتملأ قلبي انقباضاً .

وسئمت الحياة بادىء الأمر لم استطع نوماً ، بل كنت أستلقى باكية طيلة ليلى ، ويالها من ليال كئيبة تمضى وكأنها بلا نهاية .

وحينما كنت أجلس أستذكر دروسى فى المساء منكبة مع أفعالى وجملى . جزعة من أن تصدر عنى حركة ، كان خيالى ينطلق بعيداً إلى المنزل : إلى أبى وأمى ، إلى مرضعتى العجوز وما كانت ترويه لى من قصص وأساطير . واشتد بى الشقاء حتى لم أطق له احتمالا وأى متعة كنت أجدها لمجرد التفكير حتى فى أتفه الأشياء فى المنزل ، وأن أتمنى وأتمنى لو أننى كنت هناك ، وأستطيع أن أجلس فى غرفتنا الصغيرة ، وموقد الشاى ينفث بخاره ، والوجوه الحبيبة التى ألفتها حولى ، وكل شىء مرح دافىء جميل : وكم تمنيت ساعتها أن أحتضن والدتى ، أحتضنها حتى لأعتصرها . وكنت أبكى خلسة وأنا جالسة أفكر حتى تتلاشى الدروس من ذهنى وأظل طيلة ليلى أحلم بالمدرسين والناظرة والفتيات ، وأتخيل أننى قد استذكرت دروسى جيداً حتى إذا ما أقبل الصباح كنت أجهل الجميع ، فيكون عقابى أن أركع على ركبتى ، ولا أتناول سوى وجبة واحدة هى وجبة الغذاء . وقد كنت دائماً حزينة . وتعودت الفتيات بادىء الأمر أن يسخرن منى ، ويغظننى ويتعمدن إخراجى عند طورى أثناء إجابتى على أسئلة المدرسة ، وقد يقرصننى حينما كنا نمشى أزواجاً إلى الغذاء أو الشاى ثم يشكوننى إلى الناظرة عند أقل هفوة ولكن أى متعة كنت استشعرها حينما تأتى مربيتى إلى فى أمسيات السبت

وأى جنون كنت أحتضنها وأقبلها به ؟ كانت تدثرنى جيداً ثم نمضى معا ولكنها كانت لا تكاد تتابع خطاى ونحن فى طريقنا إلى المنزل وأنا أثرثر عن شيء ما متى نصل إلى المنزل أخيراً فأفتحه مرحة مشرقة الأسارير ، وأحتضن الجميع وأقبلهم كما لو كنت قد ابتعدت عنهم سنوات عشر . وأى اضطراب كنت أثيره بعد هذا . وأى أحاديث وأى قصص كنت أرويها . كنت أبادر كل شخص بالتحية ، وأضحك ، وأقفز هنا وهناك . ثم يتبع هذا حديث جدى مع أبى عند الدروس والمدرسين ، واللغة الفرنسية وأجرومية (لومند) على حين تغمر الجميع السعادة والرضا وكم يسعدنى أن أسترجع هذه الذكريات حتى هذه اللحظة .

وقد بذلت جهدى كى أتعلم دروسى جيدا لأرضى والدتى . كنت أعرف أنه كان ينفق آخر كوبك معه من أجلى وأنه يدبر أموره بطريقة لا يعلمها إلا الله . ولكنه ازداد حزنا يوماً بعد يوم ، وازدادت ثورته وتبرمه حتى بات من العسير التفاهم معه . وتدهورت أحواله من سيء إلى أسوأ . وأثقلته الديون . وكانت والدتى تخشى مجرد البكاء أو الحديث فى حضرته ، إذ كان يثور بسرعة ، وبدأت تضمحل ، ويصيبها الهزال ، وتملكها سعال مخيف .

وعندما كنت أعود من مدرستى كنت أجد الجميع فى هم وحزن : أبى ثائر ، ووالدتى قد احمرت عيناها اثر بكائها الخفى ، ثم هناك مشاحنات

تثور ، وألفاظ جارحة ثقال ، ويشكو أبي أنني لا أمنحه أية سعادة أو عزاء ، وأنه أنفق آخر مامعه على تعليمي ، وأنني لم أتعلم حتى الحديث بالفرنسية ، وباختصار ، كان يحملني ووالدتي وزر كل النكبات والمصائب التي نزلت به ... وكيف كان يعذب والدتي ؟ . . . كان مجرد النظر إليها يحطم قلبي ، كانت عظام وجنتيها ناتئة وعيناها غائرتين وشحوبها عنيفاً . ولكن كان أسوأ مايحدث من نصيبي . وكان الأمر يبدأ دائماً بشيء تافه ثم ينتهي إلى شيء لا يعلم مداه إلا الله . وغالباً ما كنت أعجز عن تتبع السبب الذي أثار هذه المشاكل جميعاً في كل أنواع الأخطاء كانت تؤخذ علي : فرنسيتي الضعيفة ، وغباوتي ، وأن الناظرة امرأة غبية تهمل واجباتها ولا يعنيها أبداً أخلاقنا ، وأنه هو — أبي — لم يجد وظيفة بعد ، وأن أجرومية « لومند » كتاب تافه أسوأ بكثير من أجرومية زابولسكي ، وأنه قد أنفق الكثير على هباء دون جدوى ، وأنني قاسية متبلدة الإحساس وباختصار ومهما بذلت من جهد لاناضل به أفعالي وجملي كنت الملومة على كل شيء .

ولم يكن سبب ذلك أن والدي لا يحبني ؛ فإنه كان يعزو والدتي ويعزني كل الإعزاز ببساطة، كان الأمر أن شخصيته هكذا .

وأصبح أبي متقلب المزاج مستريبا في كل شيء بعد أن حطمته الهموم والنكبات : ولما كان على حافة اليأس دائماً فقد أهمل صحته ، ثم أصابه برد قضى عليه بعد مرض قصير ، حتى إن الصدمة أذهلتنا عدة

أيام ، ولم نستطع أن نصدق أنه مات . وأصاب أمى ذهول خشيت منه على عقلها .

وما كاد أبى يتوفى حتى أنقض علينـــا دائنوه من كل جانب . واضطرونا إلى التخلى عن كل شىء كنا نملكه ، وكذلك اضطررنا إلى بيع المنزل الصغير الذى اشتراه أبى فى بطرسبرج ستوروفا بعد ستة أشهر من وصولنا .

أما كيف استقرت الأمور آخر الأمر فهذا ما لا أدريه ، ولكننا أصبحنا بلا مأوى ولا موارد للمعيشة وكانت والدتى تكاد تحتضر من من مرض مؤلم ألم بها أو لم يكن لدينا طعام ، ولم يكن عندنا مانعيش عليه ، ولم يكن هناك رجاء . . .

كنت فى الرابعة عشرة من عمرى آنذاك . وحدث عندئذ أن جاءت آنافيدورفنا لزيارتنا لأول مرة ، وظلت تلح فى زعمها أنها من ملاك الأرض وأنها تنتسب إلينا بصلة القربى . وقالت والدتى أيضا إنها تنتسب إلينـا بصلة القربى ولكنها قرابة بعيدة جدا ، فهى لم تزرنا قط عندما عندما كان والدى على قيد الحياة ، والآن جاءت إلينا والدموع تملأ مآقيها ، وعبرت عن عميق ألمها لخسارتنا وظروفنا المريرة ، ولكنها أضافت أن الملوم فى هذا كله هو والدى ، فقد كان يعيش عيشة تجاوز طاقته ، وأنه تعدى حدوده ، وأنه اغتر بنفسه أكثر مما يجب .

وزعمت أنها تريد أن تكون على علاقة طيبة معنا ، واقترحت أن ندفن الماضى ، وبكت عندما أكدت لها والدتى أنها لم تكن لها قط أية عداوة ، ثم مضت بوالدتى إلى الكنيسة وأمرت بقداس يقام على روح الراحل العزيز [أبى] وهكذا اتصل حبل الود بيننا .

وبعد مقدمات كثيرة أكد فيها ظروفنا المريرة ، ووحدتنا الأليمة ، وعجزنا ، مع الافتقار إلى بصيص من الأمل ، دعتنا إلى مشاركتها فى منزلها المتواضع كما قالت . وشكرتها والدتى وإن ترددت مع هذا فترة طويلة فى اتخاذ قرار ، ولكن لما لم يكن هناك أمل ، ولا شىء آخر نستطيع عمله ، أخبرت والدتى آنا فيدورفنا أخيراً أننا نقبل عرضها شاكرين .

إننى أتذكر جيداً ذلك الصباح عندما انتقلنا من بطرسبرج ستورونا إلى فاسيليفسكى . كان صباحا من أيام الخريف ساطع الشمس عليل الهواء . وكانت والدتى تبكى ، وكنت أنا أيضاً حزينة ، وكان قلبى ثقيلا بخوف غامض من المجهول .

تلك كانت أياما عصيبة ...

— ٢ —

.. ظلت الحياة مع آنا فيدورفنا غريبة مخيفة حتى ألفنا المنزل الذى تملكه فى « سكس لاين » وكان المنزل مكونا من خمس غرف : ثلاثة

منها تشغلها آنا فيدورفنا وابنة عمتى ساشا ، وهى فتاة يتيمة تكفلت بها آنا ، أما الرابعة فقد نزلنا بها نحن ، على حين استأجر الخامسة طالب فقير اسمه بوركروفسكى ، وكانت آنا فيدورفنا أكثر غنى مما طاف بخلدنا بادىء الأمر ، ولكن كان مورد دخلها غامضا مثل أفعالها ، فهى لاتهـــدأ أبدا ، وهى دائماً مشغولة ومنهمكة فى شىء ما ، وهى تترك المنزل عدة مرات فى يوم واحد ، أما ماذا كان يشغلها بالضبط فقد كان أبعد مما أستطيع أن أخمن .

وكان معارفها العديدون يأتون ويذهبون طيلة النهار . أما من كانوا ؟ فهذا ما لا يعلمه إلا الله ، كانوا دائما يأتون لعمل ما ، ولا يمكثون إلا دقيقة أو أكثر ، وكانت والدتى دائمـــا تناديني إلى غرفتنا حينما يدق جرس الباب ، وكان هذا يثير غضب آنا فيدورفنا دائما ، إذ كانت تثور ثائرتها على أمى وتقول : إننا متكبرون جدا ، وأننا أكثر تكبراً مما يجب . وأى عمل لدينا حتى نكون متكبرين ! وتستمر على هذا المنوال لساعات لا تنتهى .

ولم أستطع أنا أن أفهم مغزى تعنيفها لنا حينذاك . ولقد أدرك الآن فحسب لماذا كانت أمى تأبى الانتقال إلى منزل آنا فيدورفنا ، كانت امرأة عصبية المزاج دأبت على تعذيبنا . أما لماذا دعتنا للإقامة عندها فهذا مالايزال مستغلقا على حتى الآن . والحق أنها أظهرت عطفاً ، بادىء

الأمر ولم تظهر طبيعتها الحقيقية إلا بعد ذلك بوقت طويل عندما وثقت من عجزنا التام ، وأنه ليس أمامنا فعلا أى مكان نذهب اليه . ثم عادت فأظهرت عطفها على مرة أخرى إلى حد الألفة والمجاملة ، ولكن كان على بادىء الأمر أن أقاسى أكثر مما قاست والدتى ، إذ دأبت على أن تذكرنا مرة بعد أخرى بنعمها علينا . بل لقد يبدو أنها كانت لا تتحدث فى شىء آخر إلا هذا . .

وكانت تقدمنا إلى الغرباء على أننا أقارب فقراء ثكالى آوتهم بدافع من الروح المسيحية فحسب . ولما ماجلسنا إلى الطعام جعلت تحصى اللقيمات التى نأكلها فى حسد فإذا لم يطاوعنا ميلنا وأكلنا أقل مما يجب ثارت ثائرتها أيضا : فنحن مترفعون ، ومائدتها ليست جديرة بمقامنا ، وهل عرفنا نحن شيئا أفضل منها . ؟ وهكذا .

ولم تكف أبدا عن تحقير أبى زاعمة أنه حاول أن يكون أحسن من الآخرين ولكنه وصل إلى نهاية لاترضى ، فنزل بعائلته إلى مستوى الاستجداء ، وأنه لولا قريبة خيرة ذات روح مسيحية عطوف ، فإن هؤلاء — وهم يعرفون أنفسهم — ربما هلكوا جوعاً فى الشوارع . وأى شىء لم تتحدث به ؟ . . مجرد الاستماع اليها كان يثير أكثر مما كان يؤلم .

وغالباً ما كانت والدتى تنهار فتبكى ، وظلت صحتها تتدهور يوما

بعد يوم ، وكان واضحا أنها فى طريقها إلى النهاية . ولكننا دأبنا على العمل الشاق من الصباح حتى الليل ، نحوك الملابس فى غالب الأمر ، وكان هذا أيضا يغضب آنا فيدوزفنا التى ظلت تقول إن منزلها ليس محـــلا لعرض الأزياء .

ولكن مع هذا كان علينا أن نعمل كى نشترى ملابسنا وكى نواجه النفقات التى قد يقتضيها المستقبل .

وكان من الضرورى أن نمتلك بعض النقود الخاصة بنا ، هذا إلى أننا كنا نحاول الادخار على أمل أن ننتقل إلى مكان آخر ، ولكن العمل استنفد ما بقى من صحة والدتى ، واشتد هزالها يوما بعد يوم . كان المرض يمتص حياتها . ولقد شعرت أنا بهذا كله ورأيته على حين تمضى الأسابيع متشابهة . وكنا نعيش عيشة هادئة كما لو كنا فى الريف ، حتى أن آنا فيدورفنا هدأت ثائرتها أيضا عندما أدركت أننا نخضع لسيطرتها وان لم يكن أحد يعلم بمعارضتها على أية حال . وكان يفصلنا عن غرفها دهليز على حين كان يقطن الغرفة المجاورة بوكروفسكى كما سبق ان قلت وكان يأكل ويقطن بالمجان مقابل أن يقوم بتعليم ساشا الفرنسية والألمانية والتاريخ والجغرافيا ــ وسائر العلوم ــ كما كانت آنا فيدورفنا تقـــول :

أما ساشا وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها حينئذ ـ فكانت فتاة

فتاة حاضرة البديهة وإن تكن لها خشونة الفتيان . وعندما اقترحت آنا فيدورفنا مرة أنه لا ضرر هناك فى أن أتلقى أنا أيضاً بعض الدروس مادمت لم أكمل تعليمى المدرسى وافقت والدتى فى سرور ، وهكذا زاملت ساشا ، وظل بوكروفسكى يعلمنا معا مدة عام كامل .

وكان مدرسنا شابا فقيرا — فقيرا جداً . منعته صحته من المواظبة على الدراسة المنتظمة ، ولم يكن يوصف بالطالب إلا بحكم العادة فحسب . وكان يعيش فى هدوء حتى لا تكاد تسمع له ركزا ، فى غرفته . وكان غريب المنظر أيضاً : يمشى فى ارتباك وينحنى فى ارتباك ، وكان يتكلم بطريقة جد غريبة حتى إنى لم استطع أن امنع نفسى عن الضحك بادىء الأمر

وكانت ساشا تثيره بألاعيبها دائماً وخاصة فى أثناء الدرس . ومن سوء الحظ أنه كان سريع الغضب تثير غضبه أية تفاهة ، فيصرخ ويجأر بالشكوى وغالباً ما يندفع خارج الغرفة دون أن ينتهى الدرس . وبعدها ينعزل وحيداً لأيام عدة عاكفاً على كتبه . وكان هناك الكثير منها ، وكلها نادرة غالية .

وكان يتكسب بعض المال من وقت لآخر اذا كان يعطى بعض الدروس الخاصة فى أماكن أخرى أيضاً . وما يكاد يقبض أجره . حتى كان يهرع ليشترى كتباً أخرى . ولما أتيح لى أن أعرفه على حقيقته

اكتشفت أنه رجل طيب عطوف وأنه أفضل من التقيت بهم من الرجال .

وكانت أمي تحترمه كثيراً ، وقد أصبح فيما بعد أصـــدق أصدقائي وبالرغم من كبر سني كنت أشترك أنا أيضاً وساشا في تدبير بعض المعاكسات وكنا نفكر ساعات عدة في طرق جديدة نغيظه ونثيره بها .

وكان مضحكا جدا إذا ماغضب ، وكان هذا يسرى عن أنفسنا [انني أخجل اذ أذكر هذا الآن] وذات مرة عندما أثرناه حتى كاد يبكى سمعته يتمتم [يالكما من طفلتين قاسيتين !] ثم تغيرت حاله فجأة وهدأت ثائرته . وشعرت يومها بالخجل والأسى من أجله ورجوته وأنا خجلى حتى لأكاد أبكى ، ألا يهـــتم بنا وألا يلق بالا الى معاكساتنا الحمقاء ، ولكنه اغلق الكتاب وترك الغرفة دون أن يكمل الدرس .

وعذبنى تأنيب الضمير طيلة يومى ولم أستطع أن أتحمل أننا — نحن الاطفال — قد أثرناه حتى بكى : أو لم نكن نتوقع نحن أن يبكى ؟ . بل ألم نتمن أن يبكى ؟ . وهكذا ذكرنا — نحن الصغيرتين — رجلا بائساً فقيرا بما أصابه من نصيب مرير . ولم أستطع النوم فى ليلتى تلك ، كنت ثائرة على نفسى ، حزينة . . يوبخنى ضميرى . إنهم يقولون إن عذاب الضمير يريح القلب . وهذا محض هراء ! . والحق أن حزنى كا

يشوبه شيء من الخداع بطريقة ما ، إذ لم يكن يرضينى أن يعتبرنى طفلة .. فقد كنت يومئذ فى الخامسة عشرة . .

ومنذ ذلك أجهدت خيالى فى تدبير آلاف الخطط التى تحمل بوكروفسكى على تغيير رأيه فى . ولكننى كنت خائفة خجلى ، لا أستطيع أن أركز فكرى فى شيء اللهم إلا فى أحلام غامضة (وأى أحلام كانت) كل ما استطعت أن أفعله هو ألا أستمر فى مشاركة ساشا فى عبثها ، وكف هو عن غضبه منا . ولكن هذا كان أقل من أن يرضى كبريائى ..

* * *

وأحب الآن أن أقول كلمات قلائل عن أكثر من عرفت من الرجال غرابة وإثارة للاهتمام وجدارة بالعطف فى وقت واحد . وأنا أتحدث عنه فحسب : لأننى لم أعره اهتماما من قبل ، وبدأت أهتم به عندما أصبح كل شيء يتعلق ببوكروفسكى له أهميته القصوى عندى .

فقد كان يلم بالمنزل من وقت لآخر عجوز ضئيل ، رث الثياب ، أشيب الشعر ، يمشى متثاقلا ، وباختصار كان رجلا غريب الأطوار إلى أبعد حد . وكان يبدو دائما وكأنه يخجل من شيء ما حتى من نفسه . وكان ما يشعر به من خزى وخجل يجعله مضطربا عملا ، يقفز من موضوع لآخر . . حتى ليتساءل المرء : هل هو فى كامل وعيه ؟ وكان إذا ما وصل إلى المنزل لا يجرؤ على الدخول ، بل يقف خارج الباب

الزجاجى ، فإذا ما تصادف أن مر أحد — أنا أو ساشا أو أحد الخدم الذين يتوسم فيهم العطف ، أخذ يومىء بإشارات متعددة ، فإذا ما تيقن منا أن ليس ثمة غريب بالدار وأنه يستطيع الدخول ، فتح الباب بحذر ، وأخذ يحك يديه فى ارتياح ، ثم يمضى على أطراف أصابعه إلى غرفة بوكروفسكى . كان هذا . . أباه !! .

ولقد علمت قصته الكاملة فيما بعد : كان يعمل يوماً كاتباً فى مكان ما ، ولما لم يظهر مقدرة وضع فى أحقر الوظائف ، وعندما ماتت زوجه الأولى — والدة بوكروفسكى — قرر أن يتزوج مرة أخرى . وتدهورت الأمور مع زوجه الجديدة ؛ فهى لا تدع أحدا وشأنه ، وتتحكم فى كل شىء ، وكان بوكروفسكى الصغير طفلا فى العاشرة من عمره فى ذلك الوقت ، وكرهته زوج أبيه كراهية مريرة ، ولكن القدر وقف إلى جانبه ، فقد كان هناك إقطاعى يدعى بايكوف يعرف بوكروفسكى الكبير ويغمره بإحسانه ، فامتدت حمايته إلى الطفل أيضا وأرسله إلى المدرسة .

أما سر اهتمامه بالطفل فذلك أنه كان يعرف أمه المتوفاة ، وهى امرأة شابة كانت صديقة لآنا فيدورفنا وتزوجت بوكروفسكى وقد دفع الكرم مستر بايكوف — وهو أصدق أصدقاء آنا فيدورفنا — إلى أن يمنح الفتاة خمسة آلاف روبل بائنة لها . أما ماذا حدث لهذا

المال فهذا مالا يدريه أحد وقد علمت أنا بهذا كله من آنا فيدروفنا إذ لم يحاول بوكروفسكى الصغير أن يتحدث عن شئونه العائلية أبدا .

ويقال أن والدته كانت باهرة الجمال فما أعجب أن تقدم على مثل هذا الزواج ! ولقد ماتت فى ريعان الشباب ، بعد أربع سنوات فحسب من زواجها ولقد دخل بوكروفسكى الصغير الجامعة بعد انتهاء المدرسة ولم ينقطع مستر بايكوف — الذى كان يأتى إلى بطرسبرج كثيرا — عن رعايته . وعند ما اضطر الشاب إلى التوقف عن المدرسة لمرضه أوصى مستر بايكوف به آنا فيدورفنا التى منحته المأكل والمأوى مقابل تدريسه لساشا . وفى هــــذه الأثناء كانت زوجة بوكروفسكى الثانية تزعجه إلى حد أنه ارتكب أحط الرذائل حتى ليكاد يكون مخمورا دائمــا .

كانت زوجه تضربه ، وتجبره على البقاء فى المطبخ ، وجعلته ينحط إلى درجة تعود معها الصدمات وسوء المعاملة حتى كف عن الشكوى . وعلى الرغم من أنه لم يكن عجوزا حقا فإن ادمانه الخمر كان يهدد بهلاكه ، كانت البقية الباقية فيه من العاطفة البشرية هى حبه العميق لبوكروفسكى الصغير الذى كان صورة من أمه . ولعل ذكرى زوجه الأولى وحنانه كانا هما مبعث هذه العاطفة المشبوبة فى هذا العجوز المحطم . فلم يكن يستطيع أن يفكر أو يتحدث عن شىء إلا عن ابنه ، وكان يزوره مرتين فى الأسبوع ،

لأنه كان لا يجرؤ أن يأتى إليه أكثر من ذلك . وحتى مع هذا كان بوكروفسكى الصغير ينفر من هذه الزيارات ؛ اذ كانت أعظم نقائصه هى عدم احترامه لأبيه ، ولكن الحق أن العجوز كان أكثر خلق الله باعثا على النفور أحياناً ، اذ كان لحوحاً ، كثير الأسئلة تافه الحديث ، فكان يقاطع بأتفه الأسئلة وأحمقها استذكار الشاب . وفوق هذا كله كان مخموراً فى غالب الأمر . وكان الإبن يحاول أن يشفى الأب من رذائله ولجاجته وثرثرته ، فأدى هذا إلى أن يعتبره والده مثلا أعلى معصوما من الخطأ لا يجرؤ أن يفتح فاه أمامه دون إذن خاص . ولم يكن العجوز ليمل أبدا الإعجاب بباتنكا [كما كان يسميه مدللا] حتى لتبدو أمارات الذلة دائما على وجهه إذا أتى لرؤيته ، فهو لا يعرف أبدا كيف سيكون لقاؤه . فيقف مترددا ، فإذا ما تصادف أن مررت ورآنى أخذ يسألنى لمدة عشرين دقيقة كاملة عن حبيبه باتنكا : كيف صحته ، هل هو معتدل المزاج ؟ هل هو مشغول بشىء مهم ؟ وإذا كان مشغولا فما الشىء الذى يشغله ، أيكتب أم يجلس مفكراً ؟ فإذا طمأنت العجوز بما فيه الكفاية جازف واتخذ قراره وفتح الباب ، ولكن بكل حذر ! — ثم أطل برأسه خلال فتحة الباب ، فإذا وجد من ابنه شيئا من البشاشة ، بل لاحظ أنه قد أومأ برأسه ، ولج الباب دون صوت ، ثم خلع معطفه وقبعته التى كانت رثة دائماً ، مملوءة بالثقوب مكسورة الإطار ، ثم علق حاجاته وألقى بنفسه فى كرسى بالحذر نفسه وهو

لا يرفع عينيه إطلاقاً عن ابنه حتى لكأنما يحاول أن يستشف مزاج حبيبه باتنكا . فإذا تصادف أن كان ابنه عصبى المزاج لاحظ هذا على الفور ، فيقف متمتما أنه ما كان يريد الزيارة ، إنما تصادف مروره ، فأتى لمجرد ان يستريح هنيهة قصيرة فحسب ، ثم يبحث فى ذلة عن معطفه وقبعته الرثة ، ويفتح الباب بالحذر نفسه ويمضى على اطراف أصابعه خارج الغرفة ، وعلى شفتيه ابتسامة مصطنعة ، يخفى بها ما اعتراه من خيبة امل .

اما اذا احسن الفتى لقاءه فما يكاد العجوز يملك نفسه من الفرحة ، ويضىء الرضا فى كل لمحة من لمحات وجهه ، وفى كل تعبير من تعبيراته . واذا تنزل باتنكا بالحديث اليه ، وقف العجوز ، واجاب فى أسلوب كله خضوع وطاعة هو بالرهبة أشبه وهو يستخدم فى ذلك اكثر الكلمات تهذيبا وهذا معناه أشد الكلمات إضحاكا ، إذ لم يكن المسكين بالمتحدث أبدا . . فهو دائما فى اضطراب وخجل ، لا يكاد يعرف ماذا يفعل بيديه أو بنفسه ، ودائما يتمتم بشىء ما حتى لكأنما لا يستطيع ان يخفى قلقه وشغفه بأن يصحح إجاباته . فإذا وقع على الإجابة المناسبة ، رفع كتفيه وأصلح من صديريته ورباطه وقفطانه ، واكتسى زهواً ووقاراً. بل لقد تبلغ به الجرأة أحيانا أن ينهض ويختال متئدا حتى دولاب الكتب ، ثم يمسك أى كتاب تقع يده عليه ، وينظر إليه قليلا .

وفى حالات نادرة مثل هذه يرى العجوز دمث الأخلاق ، هادئاً

هدوء الباحث ، كأنما قد تعود استعمال كتب ابنه وكأنما قليل من عطف باتنكا أمر له أهميته . ولكني شهدت ذات مرة مبلغ ذعره عندما أمره ابنه أن يترك الكتب وشأنها ، فقد اعتراه الارتباك والاضطراب لحشر الكتاب مقلوبا ، وحينئذ أخذه القاق ليصحح خطأه . فدفعه فى مكانه وفتحته إلى الخارج وهو يبتسم طيلة هذا كله وقد احمر خجـــلا وهو يحاول أن يجعل كل شيء يبدو بريئا ، لا أهمية له .

ولما كان بوكروفسكي يتمنى أن يقوم من أحوال أبيه ، فإنه كان يعطيه خمسة وعشرين أو خمسين كوبكا أو أكثر إذا ما زاره العجوز ثلاث، مرات متتالية دون أن يكون مخمورا ، أو يهدى إليه زوجا من الأحذية أو ربطة عنق أو صدارا مما كان يجعل العجوز سعيداً متبخترا فخورا كطاووس .

وأحيانا كان العجوز يزورنا ويحضر الكعك أو التفاح لى ولساشا ويتحدث عن باتنكا ، ثم يظل بنا يحثنا على أن ننتبه إلى دروسنا أو يؤكد مرة بعد أخرى أن باتنكا ابن صالح ، ابن مثالى ، وأكثر من هذا هو ابن متعلم . وإذ كان يقول هذا كان يغمز بعينه بطريقة هزلية ، ويظهر من التعبيرات ما يجعلنا ننفجر ضاحكتين . وكانت والدتى تعجب بالعجوز أيضا ، ولكن الرجل كان يكره آنافيدورفنا وان كان يجلس فى حضرتها هادئا كالفأر ، ذليلا كالتراب . . !

وكانت دروسى مع « بوكروفسكي » تقـــترب من نهايتها ، وهو

لا يزال يعاملني كطفلة : مجرد طالبة مبتدئة مثل ساشا . وآلمني هذا إذ كنت أحاول أن أصلح من زلاتي السابقة ، ولكنه لم يعر هـذا التفاتا فضايقني هذا كثيرا . وكنت لا أكاد أحادثه خارج الدرس حتى لو سنحت لي الفرصة . وكنت أحمر خجلا وينعقد لساني ثم أبكي غضبا في أحد الأركان .. ومن يدري كيف كان الأمر سينتهي لولا حادثة غريبة : فذات مساء ، عندما كانت والدتي في حجرة آنافيدورفنا ، دخلت غرفته خلسة إذ كنت أعلم أنه خارج الدار . أما ماذا جعلني أفعل هذا فلست أدري ؟ ولم أكن قد دخلت غرفته من قبل بالرغم من تجاورنا لعام أو يزيد . . كان قلبي يدق في جنون . ونظرت حولي خائفة مستطلعة بادىء الأمر .

كانت الغرفة متواضعة الأثاث لا تحظى بشيء من العناية . وعلى الحائط خمسة صفوف من الكتب ، وعلى الكراسي والمنضدة أكوام من الورق : كتب وأوراق في كل مكان . وطرأت إلى ذهني حينذاك فكرة غريبة . فكرة سيطرت علي وأقلقتني . لماذا يعبأ هو بصداقتي وعاطفتي ؟ هو رجل مثقف وأنا . . مجرد فتاة حمقاء . . لا أعرف شيئا ، ولم أقرأ شيئا حتى كتابا واحدا . ووقفت أرقب في حسد هذه الأرفف المثقلة بالكتب .

. . كنت متألمة ، مضطربة ثائرة ، فقررت أن اقرأها جميعا ، وفي الحال ، من أولها إلى آخرها وبأسرع ما يمكن . ومن المحتمل أن فكرتي

كانت هذه : ما دمت سأعرف ما يعرفه هو فسأكون جديرة بصداقته .
واختطفت أول مجلد رأيته فى متناول يدى ، وأنا أرتعش خوفا وانفعالا
وكنت أشعر أن وجهى يشحب ويحمر على التوالى ، وكان المجلد متربا
قديماً . وكان فى نيتى أن أقرأه على ضوء المصباح الليلى إذا ما قامت أمى ،
ولكن كم خاب أملى عندما فتحت الكتاب فى غرفتى فلم أجده سوى مقال
ممزق أكلته الديدان كتب باللاتينية . ولم أضع وقتاً بل عدت إلى غرفته .
وكنت على وشك أن أضعه مكانه فى الرف عندما سمعت ضجة ، ثم وقع
أقدام فى الدهليز . وعبثا حاولت أن أضع هذه المصيبة مكانها إذ كان
الكتاب محشوراً فى مكانه حتى إنى عندما أخذته احتلت الكتب
الأخرى هذا المكان . ولم أستطع ابداً حشره فى مكانه . كنت أضغط
عليه بأقصى قوتى . ولا بد أن المسمار الصدئ الذى تتعلق به الأرفف
كان ينتظر هذا منى بالذات ؛ إذ انهارت الأرفف كلها بما فيها من كتب
وأوراق . وعندئذ فتح الباب ودخل بوكروفسكى الغرفة .

وهنا يجب أن أذكر أنه لم يكن يحتمل أبداً أن يعبث مخلوق بكتبه ،
وليرحم الله من يجرؤ على لمسها . تخيل إذن مقدار فزعى عندما تساقطت
كل هذه الكتب ، سميكها ورفيعها ، من كل حجم وكل شكل على الأرض
وأخذت تتراقص تحت المنضدة والكراسى وفى كل الغرفة . لكم تمنيت
ساعتها لو أطلقت ساقى للريح ، ولكن كان قد فات الأوان . وطاف
بذهنى أن هذه هى النهاية ، نهاية كل شىء . لقد ضعت ، انتهيت ا ضبطت

أعبث كأية طفلة فى العاشرة ، كأية طفلة حمقاء مأفونة .

أما بوكروفسكى فقد انفجر غاضبا وصرخ فى وجهى قائلا :

— وماذا بعد : « ألا تخجلين من مثل هذه الحماقات ؟ متى سينضج عقلك ؟ . »

وركع كى يلتقط كتبه ، وانحنيت كى أساعده فى جمعها ، فزجرنى ثائراً :

— « لا تتعبى نفسك ، ولعلك تحسنين صنعاً لو ابتعدت عندما لا يدعوك أحد . »

ولكنه كان قد لاحظ ذلتى ، فانلف من حديثه إلى لهجة المدرس المؤنب ، اللهجة التى كان يستخدمها فى دروسنا الأخيرة إذ قال :

— « أما آن أن تتعقلى ؟ - إنك لست طفلة - الست فتاة صغيرة - لقد بلغت الخامسة عشرة الآن . »

ولكأنما أراد أن يستوثق هذا ، إذ نظر إلى ، ولكن وجهه احمر فجأة . ولم أستطع أنا أن أفهم شيئاً ، ووقفت أحدق فيه . ووقف هو ، واقترب منى مضطرباً ، وبدأ يتكلم بكلمات مختلطة لا انسجام فيها ، لعله كان يعتذر عن شىء ما ، وربما كان ذلك لأنه لم يلاحظ من قبل أننى قد كبرت . .

وأخيراً فهمت ، أما ماذا فعلت حينئذ فهذا مالا أدريه اللهم إلا أن وجهى قد احمر خجلا حتى تجاوز خجله ، وأن الأمور قد اختلطت على ، فغطيت وجهى بيدى وانطلقت أعدو خارج الغرفة .

ولم أعرف كيف أدارى نفسى خجلا . ياإلهى . . كلما تذكرت انه وجدنى فى غرفته !! ومضت أيام ثلاثة لم اجرؤ فيها على النظر إليه ، وكان خجلى يبلغ حداً يثير الدموع فى عينى . وكانت أغرب الأفكار اكثرها مدعاة للاضطراب تتوارد الى ذهنى ، وكان أغربها جميعاً أن أمضى اليه وأصرح له بكل شىء ، أن أشرح له كل شىء وأقنعه أننى لست مجرد فتاة صغيرة حمقاء ، وأننى لم أقصد شرا ، بل لقد قررت هذا فعلا ولكنى افتقدت الشجاعه والحمد لله ، إننى أستطيع أن أتخيل جيدا إلى أى حد كنت سأبدو حمقاء فى نظره . وحتى الآن مازلت اشعر بالخجل من مجرد التفكير فى ذلك .

وسقطت والدتى فريسة مرض خطير ألم بها بعد ذلك بأيام قلائل حتى أصابتها الحمى واخذت تهذى ، ولم أفارقها لحظة واحدة ، أعنى بها وأعطيها الدواء . وما أقبلت الليلة الثانية حتى كنت منهكة لاأقوى على السهر وبدأت أرى بقعا خضراء تتراقص أمام ناظرى ، وبدا لى كل شىء كأنما يطفو من حولى . ولولا أنات أمى الضعيفة لاستسلمت للنوم فى أية لحظة . واذا ماغلبنى النعاس كنت أصحو فزعة ، ولكن النوم كان يعود فيغلبنى .

.. كان هذا هو العذاب بعينه ، وفى لحظة ما لا أدريها ولا أستطيع أن أتذكرها ، وعندما كان النوم يتصارع هو واليقظة ، غزا عقلى المكدود حلم مزعج ، فاستيقظت مذعورة . كانت الغرفة مظلمة ، اللهم إلا من شمعة تخفق فتلقى بصيصا من الضوء على الحائط . وتملكنى ذعر غريب ، وسيطر على خيالى حلم مزعج انقبض له قلبى . فقفزت من المقعد وأنا أصرخ جزعة من فرط ذعرى . وفتح الباب ، ودخل منه بوكروفسكى .. وأذكر أنى وجدت نفسى بين ذراعيه عندما ثبت إلى رشدى ، وأنه وضعنى على مقعد بلطف وحنان ، ثم قدم لى كوباً من الماء وانهال على بالسؤال إثر السؤال .. وقلت أنا أى شىء : لست أدرى ماذا .. أما هو فقال وهو يمسك بيدى :

إنك مريضة جداً .. إنك محمومة أراك تهدمين صحتك ألا استرحت قليلا ونمت ؟ وسأوقظك بعد ساعتين ـ ناشدتك أن تستلقى وتستريحى »

وظل بى يغرينى على الراحة دون أن يتيح لى فرصة الاعتراض ، وكنت فعلا فى حاجة إلى الراحة بعد طول عناء ، وكانت عيناى يثقلهما النوم ، فانكمشت فى المقعد كى أستريح نصف ساعة ، ولكنى نمت حتى الصباح حتى أيقظنى بوكروفسكى فقد حان موعد تعاطى أمى للدواء .

وفى الليلة التالية جلست إلى فراش أمى وقد عقدت عزمى على ألا أنام ، وما أقبلت الساعة الحادية عشرة حتى طرق بوكروفسكى باب

غرفتي . وقال لى وأنا أفتح له الباب :

— « ألا تشعرين بالوحدة وأنت تجلسين هنا مع نفسك؛ إليك كتابا يساعدك على تمضية الوقت »

وقبلت كتابه شاكرة ، ولا أستطيع أن اتذكر أى كتاب كان ، أو هل فتحته أو لا ؟ هذا على الرغم من أننى لم أغمض عينى تلك الليلة فقد منعتنى نشوة غريبة عن النوم . كنت حائرة ، لا أستطيع أن اجلس ساكنة فى مكانى ، فأقف مرة بعد أخرى أذرع الغرفة ، وغمرنى شعور من الارتياح النفسى والدفء اللذيذ . كنت سعيدة برعايته فخورة باهتمامه بى . وجلست أفكر وأحلم طيلة ليلى ، ولم يعد هو إلى ، وكنت أعلم أنه لن يأتى ، وهكذا ساءلت نفسى : ترى هل يقبل الليلة التالية ؟ .

وفى الليلة التالية ، بينما الجميع نيام ، فتح بوكروفسكى غرفته ووقف يحدثنى على عتبة الباب ، ولست أستطيع أن أتذكر كلمة واحدة مما تبادلناه من حديث . كل ما أتذكره أنى كنت خجلة مضطربة .. أضيق بنفسى . وأنى تمنيت أن ينتهى حديثه وإن كنت طالما أشتهيته ، وحلمت به ، وأعددت له كل الأسئلة وكل الأجوبة .

وفى تلك الليلة بدأت صداقتنا ، وهكذا بتنا نقضى معا عدة ساعات من كل ليلة خلال مرض أمى . ويوماً بعد يوم تغلبت على خجلى وإن

كنت أشعر بعد نهاية كل حديث أنى مبترته بنفسى ، ولكنى كنت سعيدة فى أعماقى ، حينما أرى أنه نسى كتبه البغيضة .

وذات مرة مضى بنا الحديث إلى التفكه بقصة انهيار أرفف الكتب واجتاحتنى ساعتها حالة غريبة ، فإذا بى جريئة واثقة بنفسى ، وتملكتنى نشوة غريبة وأنا أعترف له بأننى إنما أردت أن أتعلم — أن أعرف شيئاً ، وأنه قد حز فى نفسى أن اعتبرنى مجرد طفلة . . لاشك أننى كنت فى حالة غريبة ، إذ أفعمت نفسى حنانا وامتلأت عيناى بالدموع وصرحت له بكل شىء : صداقتى له ، وكم أتمنى لو عنيت به ، وأن أصبح على وئام معه وأن أملأ حيـــاته عزاء وحناناً ، وهو يصغى إلى دهشاً مستغربا مضطربا صامتاً وآلمنى صمته وشعرت بخيبة أمل : لعله لم يفهم ، بل لعله كان يسخر منى فى أعماقه . ولم أستطع أن أقاوم نوبة من البكاء فانفجرت باكية كطفلة ، وتأثر هو فأمسك بكلتا يدى يقبلهما ، ويضغطهما على صدره وهو يتمتم مواسياً . أما ماقاله بعد ذلك فلست أذكره ، كل ما أذكره أننى بكيت ثم ضحكت ، ثم غلبنى البكاء ، وأن وجنتى كادتا تحترقان ، وأننى لم أستطع أن أتفوه بكلمة لفرط سعادتى . وعلى الرغم من اضطرابى لاحظت أنه كان شارداً قلقا لعله لم يستطع أن يفيق من دهشته امام حماسى ونشوتى المفاجئة ، أو لعله كان غير مصدق أول الأمر ثم تقبل عاطفتى وكلماتى المخلصة واهتمامى بإخلاص يعادل اخلاصى ، وبالاهتمام والحنان نفسهما ، كصديق .. بل كأخ . وكان هذا

جميلا ممتعا يملأ القلب عزاء ، لم يكن ثمة داع لأن أخفى أى شيء فقد كان يشعر بهذا كله جيدا ، وأخذ يقترب منى يوماً بعد يوم .

أكان هناك شيء ما لم نتحدث فيه فى تلك الأيام الحلوة على ضوء مصباح يخفق إلى جانب فراش امى ؟ كنا نتحادث عن كل ما يخطر على العقل ، وما يعبر عنه القلب . . وكنا سعداء . أيام ممتعة كانت تلك ، وإن تكن حزينة . وإن ذكراه لتمتع وتحزن فى الوقت نفسه .

إن الذكريات سواء الممتع منها او الحزين ، مؤلمة دائماً — أو هى على الأقل كذلك بالنسبة لى ، ولكنه نوع لذيذ من الألم . وعندما تثقل قلبى الهموم فان الذكريا تسره وتنعشه ، كما تفعل أنداء المساء فى زهرة مسكنية أضنتها حرارة الظهيرة .

وكانت والدتى تتماثل للشفاء وإن كنت لاأزال أجلس إلى فراشها وكان بوكروفسكى يحضر إلى كثيرا الكتب فى غالب الأمر ، وكنت أقرؤها فى البداية كى أذود النوم عن أجفانى ، ثم بت أقرؤها فى كثير من الانتباه ، وانتهى بى الأمر إلى قراءتها فى شغف شديد لقد اكتشفت فيها آفاقا جديدة كنت أجهلها وأشياء لم أكن أتوقعها ، وامتلأ قلبى بالانطباعات الجديدة . وكلما كانت هذه الإحساسات مما يستعصى على فهمى بادىء الأمر اعتززت بها وكانت أكثر عذوبة لروحى . ولما

ازدحمت فى قلبى بلا نهاية تركتنى فى تيه من العجب والدهشة . ولحسن الحظ لم يؤثر هذا الغزو الروحى على توازنى ، كنت حالمة إلى حد لم يكن من الممكن معه أن لايحدث لى ذلك .

وعندما شفيت والدتى انتهت سهراتنا الليلية ، وكان من النادر بعد ذلك أن نتبادل كلمات قلائل ، وربمـــا كانت كلمات تافهة ولكنها تخفى وراءها الكثير . وكنت سعيدة جداً ، وامتدت سعادتى أسابيع عدة .

وذات يوم أقبل بوكروفسكى العجوز لزيارتنا ، وجلس يثرثر كعادته ، ولكنه كان مبتهجا منشرح الصدر على غير عادته . وأخذ يضحك ويمزح ثم أنهى إلينا سر ابتهاجه بأن أخبرنا أن عيد ميلاد عزيزه باتنكا بعد أسبوع واحد فحسب ، وأنه سيزور ابنه فى هذه المناسبة ، مرتديا صداره الجديد ومنتعلا زوجا من الأحذية وعدته زوجته أن تشتريه له . وباختصار كان العجوز سعيداً جداً وأخذ يثرثر بلا انقطاع .

عيد ميلاده ! لقد فكرت فيه ليل نهار ، أنا أيضاً سأقدم إليه هدية فى عيد ميلاده لتذكره بصداقتنا ، ولكن ماذا يجب أن تكون ؟ — أخيرا قررت أن أهدى إليه بعض الكتب ، وكنت أعرف أنه يتمنى لو اقتنى مؤلفات بوشكين فى آخر طبعاتها . فلتكن مؤلفات بوشكين إذن هديتى إليه .

وكانت حياكتي للثياب قد مكنتني من توفير حوالى ثلاثين روبلا كي أشترى بها لنفسي فستانا ، وهكذا أرسلت طاهيتنا العجوز «ماتربونا» كي تستفسر عن ثمن المجموعة الكاملة . ويا إلهي ! . . كان ثمن الأحد عشر كتابا مجلدة ستين روبلا على الأقل !

من أين إذن أدبر المال ؟ . واعتصرت فكري ولكن بدون جدوى . إنني لا أستطيع أن أطلب من أمي بعضا من المال ، من الطبيعي أنها ستساعدني ، ولكن في هذه الحال سيعلم كل من في المنزل ، ولن تصبح الهدية سوى مجرد التعبير عن الشكر لبوكروفسكي على تدريسه لي . ولكنني كنت أريد أن تكون الهدية مني أنا فحسب . أما عن الجهد الذي بذله معي فقد رجوت أن أظل مدينة له به إلى الأبد ، وأن أجازيه عليه بصداقتي وحدها .

وأخيرا وجدت الطريقة التي أحقق بها أملي . . كنت أعرف أن باعة الكتب في «جوستيني دفور» يبيعون أحيانا كتبا مستعملة ، ولكنها تكاد تكون جديدة وبنصف ثمنها الأصلي اذا ما ساوم المرء معهم ، لذا عولت على زيارة جوستيني دفور بأسرع ما يمكن ، وسنحت لي الفرصة في اليوم التالي : كان ثمة شيء ما احتجنا الى شرائه ، ولما كانت والدتي متوعكة ، وآنا فيدوروفنا مصابة بنوبة من الكسل ، لذا كانت هذه المهمة من نصيبي .

ومضيت أنا وماتريونا ، ومن حسن حظنا عثرنا على مجموعة جميلة من مؤلفات بوشكين وبدأنا المساومة . وطلب البائع ثمنا أكثر من ثمنها الأصلي بادىء الأمر ، ولكنه أنزل الثمن إلى عشرة روبلات من الفضة بعد كثير من الجهد ، وبعد أن تظاهرت بعزمي على الرحيل عدة مرات . ويالها من متعة أن يساوم المرء ! ولم تفهم «ماتريونا» المسكينة أبداً لماذا كنت مضطربة إلى هذا الحد أو لماذا أحتاج الى هذا العدد كله من الكتب ؟ ولكن المشكلة كانت أنني لا أمتلك الا ثلاثين روبلا من الورق والبائع لا يرضى بأن يبيعها بأقل من المبلغ الذي حدده ولو بكوبك واحد . ولكني توسلت وتوسلت ، وأخيراً ، وبعد أن تركته ثم عدت عدة مرات ترفق ونقص الثمن روبلين وهو يشهد الله والسماء ، أنه لم يفعل هـــذا إلا لأنني شابة جميلة فحسب ، وأنه ما كان يرضى بتخفيض الثمن من أجل أي مخلوق آخر في هذا العالم !

وكم كان ألمي وانا ارى ان كل ماينقصني هما روبلان فحسب . وكنت على وشك البكاء كمدا لولا ان ساعدتني ظروف لم أكن أتوقعها بعد أن أسلمت نفسي لليأس .

فغير بعيد وقف بوكروفسكي العجوز عند بائع كتب على حين أحاط به أربعة أو خمسة من الباعة يزعجونه حتى كاد يجن ، كل يمجد شأن كتبه . وأي كتب كانت ! ومع هذا كان العجوز متلهفاً عليها

جميعاً ، ولكن ارتباكه يمنعه عن تحديد مايختاره منها . واقتربت منه وسألته ماذا هو فاعل ؟ فطغت عليه الفرحه ، إذ كان العجوز معجباً بى لايقل عن إعجاب عزيزة باتنكا وقال الرجل :

— اننى أشترى الكتب يا فارفارا اليكسيفنا ، بعض الكتب من اجل حبيبى باتنكا ، فعيد ميلاده قد اقترب ، وهو يحب الكتب لذا فسأهدى اليه كتباً .

وكان العجوز يعبر عن شعوره دائماً بطريقة هزلية ، اما الآن فقد أضاف الى طريقته المضحكة فى الحديث ارتباكه واضطرابه .

وكان كل ما يختاره لايقل ثمنه عن روبل أو روبلين أو ثلاثة .

ولم يحاول قط أن يسأل عن ثمن الكتب الكبيرة ، بل كان يكتفى بأن ينظر إليها متأملا ، ثم يتحسس أوراقها ، ثم يضعها مكانها برفق وهو يتمتم :

— كلا .. كلا هذه غالية جدا . لنر غيرها. ثم يعود ليفتش فى كتب الأغانى والتقاويم الرخيصة .

وسألت الرجل :

— لماذا تشترى هذه الكتب ؟ — إنها تفاهات !

وأجابنى :

— كلا — إنها كتب لطيفة .. لطيفة جدا ..

ونطق الكلمة الأخيرة حزينا متمهلا حتى بدا لى أنه أوشك على البكاء؛ لأن الكتب الأخرى غالية جدا، بل لقد رأيت دمعة كبيرة تكاد تنساب من عينيه على أنفه الأحمر، وسألته عما معه من نقود، وتمتم قائلا : (نقود .. نعم) ثم أخرج المسكين كنزه الكامل ملفوفا فى قطعة من ورق الصحف . فإذا بها نصف روبل ، وقطعة من فئة عشرين كوبكا، وعشرون أخرى من النحاس . وجذبته إلى بائع الكتب الذى ساومته — هنا أحد عشر كتاباً تكلفنا اثنين وثلاثين روبلا ونصف الروبل ومعى ثلاثون منها . دعنى أضيف إليها ما تملك ونشترى الكتب ونجعلها هدية مشتركة منا .

وكاد الرجل يجن فرحاً ، ودفع بفضته ونحاسه فى يد البائع الذى حمله فوراً بمكتبتنا التى اشتريناها .

ووعدنى العجوز مخلصا بعد أن حشد الكتب فى جيوبه ، وتحت إبطه ، وعدنى بأن يأتى بها إلى فى اليوم التالى دون أن يلحظه أحـــد ، ومضى إلى منزله . . يحمل كنزه ! . .

فلما كان الغد أقبل الشيخ لزيارة ابنه ، وبعد أن قضى عنده حوالى الساعة كعادته أقبل علينا لزيارتنا ، وجلس فى أغرب طريقة هزلية غامضة يمكن تخيلها ، وأخذ يبتسم متلطفاً وهو يفرك كفيه فرحا كمن يكتم سراً ، وهمس فى أذنى أنه قد أحضر الكتب سرا إلى المـــنزل

وأخفاها فى المطبخ تحت رعاية « ماتريونا » ثم تطورت المناقشة إلى الحادثة السعيدة التى ينتظرها ، فأفاض فى الحديث عن هديتنا وكيف نقدمها . ولكن كلما تمادى فى حديثه زاد يقينى أن عنده ما يخفيه — شىء ما لا يجرؤ — بل يخشى — أن يذكره ، ولم أقل شيئاً ، ولكنى رأيت هذه اللمحة من الضياء والرضا المكبوت وغمزات عينه اليسرى تكاد تذهب عنه كلها وأنه قد أضحى متلهفاً قلقاً. وأخيرا بدأ يتحدث وبصوت خفيض مضطرب .

— فارفارا اليكسيفنا : أتعرفين فيم.. أفكر ؟. وازداد اضطرابه ، ولكنه واصل حديثه قائلا :

— ان الأمر هكذا . ماذا لو قدمت إليه عشرة كتب باعتبارها هديتك أنت الخاصة ، وقدمت إليه الكتاب الحادى عشر كهديتى أنا الخاصة . وبهذه الطريقة ستقدمين له هدية ، وسأقدم اليه هدية — كل منا يقدم هديته .

وكان مضطربا بحيث لم يستطع أن يكمل حديثه ، فجلس يترقب قرارى . . وسألته :

— لماذا لاتريدنا أن نقدم هديتنا معا يازاخار بتروفتش ؟ قال :

— حسناً يافارفارا اليكسفنا ، الحق أن الموضوع هو . .

ثم تلجلج متعثرا . . . واحمر وجهه حتى قال أخـيرا ـــ الحق أننى أزل أحيانا يافارفارا اليـكسيفنا ، بل أخشى اننى أزل دائماً . وباختصار اننى لاأسلك كما ينبغى أحياناً لأن المرء يشعر بالبرد وأحياناً لأنه فى ضيق ، أو لمجرد أن المرء متوعك المزاج أو أن شيئاً ما قد مضى على غير مانشتهى ، ولا يستطيع المرء ان يقاوم قليلا من الخمر يشربها وقد تزيد احياناً عما يستطيع أن يتحمله . وتعرفين أن باتنـكا لايحب هذا ، انه يغضب منى ثم يعنفنى ويعظنى . وهكذا ستشعره هديتى أننى كنت أصلح من امرى وإذا ما أردنا الصراحة فسيرى أننى كنت أدخر منذ أمد طويل ، فما من مخلوق يعطينى القليل من المال سواه . وهذا سيسعده إننى أنفقت المال فى أمر مثل هذا ، وأننى ادخرته جميعاً من أجله هو لحسب .

وشعرت بالأسى من اجل العجوز الذى جلس ينظر الى قلقـاً يترقب حكمى ، واتخذت قرارى بسرعة وقلت . .

ـــ قدم اليه الـكتب كلها أنت نفسك يازاخار بتروفتش .

ـــ كلها ، أتقصدين كل الـكتب ؟

ـــ طبعاً . .

ـــ كأنها هدية منى أنا ؟

ـــ نعم

— هدية من عندى أنا ؟

— نعم هدية من عندك انت !

وبدا كأنه يستطيع ان يستوعب هذه الحقيقة لمدة طويلة . وأخيرا تمتم حالماً :

— طبيعى ان هذا سيكون رائعاً — نعم سيكون هذا رائعاً ، ولكن ماذا عنك انت . . ماذا ستفعلين انت يافارفارا أليكسيفنا ؟

وقلت :

— لا شىء .

وصرخ هلعاً

— لاشىء منك !! لا شىء على الإطلاق ! . .

وإذ راعه هذا أبدى استعداده لأن يتخلى عن هذه الفكرة حتى أستطيع أنا أيضا ان أهدى شيئاما لابنه . كم كان روحه عطوفا! واكدت له انه ليسعدنى ان أهدى إلى ابنه شيئا ولكنى لا أريد أن أفسد متعته . ثم اضفت :

— اذا ماسعد ابنك سعدت أنت ، وسأسعد انا ايضا بدورى — وسيكون هذا كما لو كنت قد اهديت اليه شيئاً بنفسى .

وطمأنه هذا ، ومكث معنا ساعة أو يزيد ، ولكنه لم يستطع أن

يجلس هادئاً لحظة ما . . اذ ظل يثب هنا وهناك ، يتحدث ويضحك ويعابث ساشا ، ويقبلني ، ويقرص ذراعي ، كلما استطاع ، ويقلد آنا فيدورفنا ساخراً اذا ما أولته ظهرها حتى اضطرت آخر الأمر إلى طرده . . إنني ما رأيته قط في حياتي في مثل هذا الاضطراب والمرح .

وعندما أقبل اليوم الموعود ظهر على عتبة الباب في الحادية عشرة بالضبط عقب انتهاء القداس مباشرة ، وهو يرتدي معطفا باهتاً أتقن إصلاحه . ثم صداراً وحذاء جديدا بحق، وكان يحمل ربطة من الكتب في كلتا يديه . وكنا في هذه اللحظة قد بدأنا نتناول القهوة في غرفة آنافيدورفنا (إذ كان اليوم يوم الأحد) . وكانت أولى ملاحظات الشيخ أن بوشكين شاعر ممتاز ، ولكنه سرعان ما ارتج عليه القول فعدل إلى القول بأن على المرء أن يصلح من سلوكه بنفسه ، وبأنه لو لم يفعل المرء هذا لزل ، وبأن هذه الزلات الشريرة هي سبب خراب البشر ، وأكد هذا ضاربا أمثلة لا تدع للشك مجالا . ثم أخذ يؤكد أنه أخذ يصلح من أحواله منذ وقت طويل مضى . وبدأ يسلك سلوكا مثاليا ، وأنه قد وعى دائما ما في كلمات ابنه من صدق ، وأنها مست قلبه دائما ، ولكنه الآن حسب قد تغير إلى حال أفضل . والشاهد على ذلك أنه يرجو ابنه أن يتقبل هذه الكتب التي اشتراها بنقود ظل يدخرها طويلا .

ولم أستطع أن أمنع نفسي عن الضحك والبكاء في آن واحد وأنا أستمع إلى الشيخ ، فقد عرف كيف يخترع قصة مناسبة عندما اقتضى

الحال ذلك ، ثم نقلت الكتب إلى غرفة ابنه ، ووضعت على الرف ، ولكن كان من الطبيعى أن يخمن بوكروفسكى الحقيقة فورا

ثم دعى العجوز بعد هذا إلى الغداء وقضينا يوما سعيدا حقا ! وبعد الغداء لعبنا الورق على مبالغ ضئيلة . وكانت ساشا مبتهجة ، ولم أكن أقل منها ابتهاجاً ، وأظهر بوكروفسكى اهتمامه بى ، وحاول أن يحادثنى عندما خلا إلى ولكننى لم أمهد له الفرصة.

كان هذا أسعد أيام حياتى خلال سنوات أربع ، والآن تأتى أسود أيام حياتى وأكثر الذكريات إثارة للألم ، وربما كان هو السبب الذى من أجله تمضى ريشتى بطيئة حتى لكأنها تتأبى على الكتابة لعل هذا هو أيضاً مادفعنى إلى أن أصف كل هذه التفاصيل الصغيرة فى أيامى السعيدة ذلك الوصف الأخاذ فلقد كانت أيامى السعيدة أياما قلائل تبعتها الأحزان والمشكلات التى لا يعلم غير الله مداها .

بدأت نكباتى بمرض بوكروفسكى ثم وفاته : كان قد لازم الفراش بعد مضى شهرين من هذه الحوادث التى ذكرتها آنفاً ، فقد أنهك نفسه خلالها ، فكان يعمل بجد كى يتكسب قوت يومه إذ لم يكن له مورد رزق ثابت يتعيش منه ، وقد ظل حتى اللحظة الأخيرة يتعلق بأمل واهن كغيره من المصابين بداء الصدر وهو أنه سيعيش طويلا ، وقد كان فى استطاعته أن يعمل مدرسا ، ولكنه كان لا يميل إلى هذه الوظيفة :

من حيث التوظف فى الحكومة فلم يكن محل تفكير نظرا لاعتدال صحته وإلى جانب هذا كان عليه أن ينتظر طويلا حتى يحصل على مرتبه الأول وباختصار لم يكن يستطيع أن يرى غير الجانب الأسود من الأمور ، وبالتدريج انطوى على نفسه وتدهورت صحته أيضاً وإن لم يلاحظ هذا وعندما أقبل الخريف كان يخرج فى معطف هزيل فى أغلب الأحيان وليبحث عن وظيفة ، وكان هذا يشعره بذلة مريرة . ولما تكررت غدواته تحت المطر ، تكرر ابتلال قدميه ، لازم الفراش ولم ينهض منه أبداً . ومات فى منتصف الخريف فى نهاية أكتوبر .

وقد لازمته خلال مرضه لا أكاد أبرح غرفته ، أعنى به وألبى حاجاته جميعاً ؛ وطالما سهرت عليه ليال بأكملها . وكان يهذى فى أغلب الأحيان ، ويتكلم عن كل أنواع الأمور : عن كتبه ، عن الوظائف التى سعى إليها ، عنى ، عن أبيه — عن الكثير مما لم أكن أعرفه من قبل وعن أشياء لم تكن تخطر لى على بال . وبدا لى وكأن كل من فى المنزل يرمقنى بنظرات غريبة فى أول الأمر ، وكثيراً ما كانت آنا فيدورفنا تهز رأسها مستنكرة ؛ ولكنى كنت أرد على نظراتها فى هدوء ، ويوماً بعد يوم كفوا عن الاهتمام بهذا ؛ أو على الأقل كفت عن هذا أمى .

وكان ثمة أوقات يتعرف فيها « بوكروفسكى » على ، ولكنه كان يهذى أغلب الأوقات ، وفى أوقات أخرى كان يبدو كمن يجادل شخصا

ما ليلا بأكمله وفى كلمات غامضة . . وصوته الأجش يدوى فى الغرفة الصغيرة كأنه فى قبو . وكنت خائفة . وفى ليلته الأخيرة أصابه مس من جنون ، وكان يتألم كثيراً ولا يكف عن الأنين . وخافه الجميع ، وصلت آنا فيدورفنا إلى الله أن يأخذه سريعاً ، وقال الطبيب : ان النهاية آتية لاريب فيها إذا حل الصباح .

وقضى « بوكروفسكى » العجوز ليلته أمام باب ابنه حيث فرشت له حصيرة لينام عليها ، وأخذ يتردد على الغرفة بين الحين والآخر ، وكان منظره مخيفا ، كان الحزن قد أذهله وحطم قلبه ، وطفق رأسه يرتعش اضطراباً ، وظل يتمتم محدثاً نفسه حتى خشيت أن يفقد عقله ، وقبيل الفجر غلبه التعب ، فاستسلم لنوم أشبه ما يكون بالموت .

وما أن تجاوزت الساعة السابعة صباحا حتى أحسست أن الموت قريب ، فأيقظت الأب ؛ وكان المحتضر قد استرد وعيه تماما فودعنا جميعاً ، وتحجرت الدموع فى عينى على الرغم من أن قلبى كان يتحطم .

غير أن لحظاته الأخيرة كانت أسوأ اللحظات جميعا ، فقد ظل يتضرع ملحاً من أجل شىء ما وبلسان ملتو ، ولكنى لم أستطع أن أتبين كلماته ، وكان الأمر أكثر مما أستطيع احتماله فقد ظل ساعة كاملة لا يستقر على حال وهو ينظر إلى مستعطفا يحاول أن يقول لى شيئاً ما بإشاراته ، ثم أخذ يتوسل إلى فى صوت أجش لا أميزه ، ولكنى لم أستطع هذه المرة

أيضاً أن أفهم شيئاً ، فأحضرت الجميع إلى فراش مرضه ، كلا بدوره ، ولكن دون جدوى ، وأعطيته قليلا من الماء ، ولكنه هز رأسه آسفا .

وأخيرا فهمت مايريد . كان يرجونى أن أرفع ستار النافذة كى يحظى بنظرة أخيرة إلى ضوء النهار . . إلى الشمس .. إلى عالم الله كله .

ورفعت الستار غير أن الصباح الباكر كان كئيباً حزيناً كالحياة الآفلة . . كانت الشمس محتجبة ؛ والسماء تختفى خلف الضباب .. وكانت سماء حزينة ممتلئة بالسحب ، ورذاذ من مطر يرسم خطوطاً من ثلج على زجاج النافذة . . وبدت الكآبة أعمق مما هى حقاً . وثمة أصابع نحيلة من الضوء تصارع لهب مصباح الأيقونة المرتعش ، ورمقنى المحتضر بنظرة تقطر تلهفاً وأسى . . وهز رأسه . .

وفى لحظة . . كان قد مضى . . ! !

وأشرفت آنا فيدروفنا على تشييع الجناز ، فاشترت تابوتا بسيطاً جدا ، وأجرت عربة متواضعة ، ولم تنس أن تعتاض عن هذه النفقات فاستولت على كتبه وممتلكاته الأخرى ، وثار العجوز وتشاجر معها مشاجرة مريرة ، واستعاد ما استطاع من كتب ، وحشرها فى جيوبه ، وفى قبعته ولم يفارقها لحظة لأيام ثلاثة وهو يحملها معـــه . . حتى فى الكنيسة . وكان مذهولا . . ضائعاً . . خلال هذه الأيام . يحوم دائماً

حول التابوت . . يعدل الأكفان ، ويضيء الشموع أو يطفئها ، وهو تائه شارد الفكر .

ولم تحضر أمي أو آنا فيدورفنا صلاة الجناز كانت والدتي مريضة ، أما آنا فيدروفنا فكانت تنوي الذهاب ولكن بوكروفسكي عاد فتشاجر معها ، فعدلت عن رأيها . ولم يحضر الجناز سواي والعجوز فحسب ، وتملكني خلال الصلاة نوع من الرعب ، نوع من التكهن بنذر المستقبل ، وقاومت حتى استطعت بصعوبة أن أنتظر إلى انتهاء الصلاة . وأخيراً أحكم على التابوت غطاؤه ، ووضع على عربة مضت به .

وتبعته حتى نهاية الطريق ، ثم وخز السائق الخيل فمضت مسرعة والعجوز يجري خلفها وهو يشهق باكياً حتى تقطعت أنفاسه ، وسقطت قبعته ، ولكنه لم يتريث ليلتقطها ، وبلل المطر شعر رأسه على حين كانت الرياح القاسية تصفع وجهه ، ولكنه بدا وكأنه لا يحس بشيء ، وظل يقفز من جانب العربة إلى الجانب الآخر ، وذيل معطفه القديم يتأرجح وتساقطت الكتب من كل جيوبه في حين احتضن أكبرها إلى صدره . وخلع المارة قبعاتهم ، ورسموا علامة الصليب ، بل لقد وقف بعضهم يحدق في العجوز المسكين ، وظلت الكتب تقع من جيوبه في الوحل ، فإذا استوقفه أحد لينبهه إليها اختطفها وجرى كي يلحق بالعربة .

وعند منعطف الطريق انضمت إليه سائلة عجوز رثة الثياب ، ولما غابت العربة عن ناظرى عدت إلى منزلى ، وألقيت بنفسى على صدر أمى وأنا أبكى فى حرقة وأخذت أقبلها وأطوقها بذراعى حتى لكأنى أردت أن أحمى آخر من بقى لى فى الحياة ، يبدو أن الموت كان واقفاً بالمرصاد عند رأسها .



۱۱ من يونيه ...

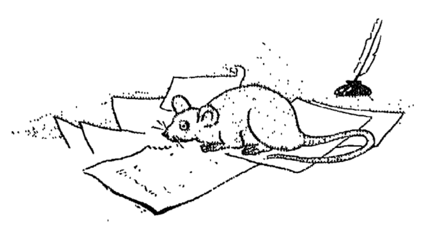
كم أنا ممتنة لك على نزهة الأمس يا ماكار أليكسفتش ! كم كانت هذه الجزر خضراء جميلة منتعشة ، فأنا لم أكن قد شاهدت الشجر والعشب منذ مدة طويلة ! وعندما كنت مريضة خيل إلى أن العمر لن يمتد بي حتى أراها مرة أخرى ، وهكذا يمكن أن تتخيل كيف كان شعورى بالأمس . ولكننى أرجو ألا يضايقك ما بدا من حزنى أمس . كنت فى الواقع سعيدة مبتهجة القلب ، ولكنى لست أدرى كيف أصبح حزينة دائماً فى أسعد لحظاتى . وإذا كنت قد بكيت فلا تهتم لبكائى ، فإنى لأبكى غالبا ولا أدرى : لماذا ؟ ذلك أن الأشياء التى أشعر بها تؤلمنى بسهولة ؛ فإحساساتى دائما مؤلمة : السماء الشاحبة الخالية من السحب ، والشمس الغاربة ، وصمت المساء . . ولست أدرى : ماذا أيضا ؟ . حسن . . . كنت فى حالة أتأثر معها بسهولة وقلبى مكدود يطلب الدموع . . لماذا أكتب كل هذا ؟ إن كل شىء غامض فى قلبى ، فإذا سطرته على الورق بدا خاليا من المعنى ، ولكن ربما فهمت أنت . . . دموعى وضحكاتى أى

إنسان طيب ! ... أى إنسان عطوف أنت يا ماكار أليكسيفتش .عندما كنت تنظر إلى بالأمس أحسست أنك تحاول أن تقرأ مافى عينى ، وأن تستشف سعادتى . وسواء أكانت شجيرة أم سياجا أم مجموعة من الشجر أم نهيرا هو ما أرى وأنا أمل كنت أنت هناك تراقبنى حتى لكأنما كان هذا كله ضيعة تملكها أنت . .

إن هذا كله يشهد على أن لك قلبا عطوفا يا ماكار أليكسيفتش ، ولقد أحببتك أنا لهذا ؛ إلى اللقاء يا عزيزى إننى مريضة اليوم أيضا : فقد بللت قدمى وأصابنى برد . فيدورا مريضة أيضا ، وهكذا أصبح كلانا عاجزا . لا تنسنا وتعال إلينا ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

المخلصة

ف . و .



١٢ من يونية

عزيزتي فارفارا

أتعرفين أنني توقعت أن يكون خطابك بالأمس شعرا ولا شيء أقل من ذلك! ولكنك كتبت بدلا من هذا صفحة واحدة صغيرة فحسب، ولا أعني بهذا إلا القول أنه مع أنك كتبت القليل جدا فإنه كان جميلا جدا وعزيزا لدى؛ ففي خطابك الطبيعة والخضرة والمشاعر، وباختصار لقد وصفت كل شيء وصفا أخاذاً، أما عني أنا فلست ذا موهبة، ولا شيء يتأتى من كتابتي مهما كتبت عشرات الصفحات. وإنني لأعرف هذا جيدا.

أنت تقولين يا عزيزتي إنني عطوف خير أستجيب للخير الإلهي الذي يتحقق في الطبيعة البكر، وتغدقين على الثناء بطرق شتى أيضا، كل هذا صحيح يا عزيزتي، صحيح صحة الإنجيل! إنني بالضبط كما وصفت. إنني أعرف هذا، أنا نفسي. ولكن قراءة ما كتبت يذيب قلب المرء، وسرعان ما يسترجع افكارا ومشاعر حزينة.

والآن سأروى لك طرفاً عن نفسى ياصغيرتى .

عندما التحقت بعمل لأول مرة كنت فى السابعة عشرة من عمرى ، وكان هذا منذ ثلاثين عاماً خلت، وأجرؤ على القول بأننى مزقت كثيراً من معاطف العمل منذ ذلك الوقت ، ولكنى قد نضجت وعقلت .

ورأيت شيئاً من أخلاق البشر أيضاً ، لقد عشتها عيشة كاملة وتيقنى هذا ، بل لقد أتى وقت أوصوا فيه بمنحى وساماً . ربما لا تصدقين هذا ، ولكن يشهد الله على صدقى .

ولسوء الحظ يافتاتى يعيث الأشرار فسادا فى كل مكان ، ولعلنى جهول ومجرد غبى ، ولكنى انسان ذو قلب ككل مخلوق آخر فى هذا الوجود اتعرفين يافارينكا ماذا فعل بى هذا الرجل الشرير ؟ — إننى لأخجل أن أروى لك ، ولعلك تفضلين أن تسألى : لماذا فعل مافعل ؟. لمجرد أننى أنطوى على نفسى — لأننى هادىء — لأننى طيب القلب . ولهذا كله لم أكن أرضى ذوقه . هذا هو السبب .

وبدأ الأمر بأشياء صغيرة « ماكار أليكسيفتش هو هذا .. ماكار أليكسيفتش هو ذاك ، . . « ثم تطورت إلى . . . ماذا تنظرين ماكار أليكسيفتش ! ! . . » ، وأخـــيراً . « . . من الملوم ؟ » إنه . ماكار أليكسيفتش طبعاً .. » .

وهكذا ترين ياعزيزتى أنها كانت غلطة ما كار أليكسـ

هذا هو كل ما فعلوه : جعلوا من ماكار اليكسيفتاش كلمة حاضرة على شفاههم فى الوزارة كلها ، ولم يكفهم هذا ، فسرعان ما تناثرت الملاحظات والتعليقات عن الأحذية التى أرتديها ، عن معطف العمل ، عن شعرى ، بل عن منظرى أيضاً .. كلها خطأ ويجب أن تغير . واستمر هذا سنوات متعاقبة وكل يوم تقريبا على ما أذكر !

لقد ألفت هذا الآن ، فأنا أستطيع أن آلف أى شىء ، لأننى إنسان ضئيل ، لاوزن له ولا خطر . ولكن ومع هذا . . لماذا يجب أن أعانى هذا كله ؟ أى خطأ ارتكبت ؟ هل اغتصبت ترقية رجل آخر ورقيت أنا فى غير دورى ؟ أى مخلوق ذكرته بسوء عند الرؤساء ! هل تشاحنت من أجل علاوة .. ؟ هل تآمرت على أى شخص ؟ إن الشخص ليخجل لمجرد أن يتصور مثل هذه الأمور . وما حاجتى أنا إلى كل ذلك ؟ بل تخيلى يا عزيزتى .. هل رزقت من المواهب ما يكفى للطموح والخداع ؟

ليغفر لى الله أخطائى ، ولكن ماذا فعلت حتى أستحق هـذا كله ؟ . أنا فى نظرك رجـل محترم ، ألست أنا كذلك ؟ وأنت يا حبيبتى أفضل كثيراً من الآخرين جميعاً . ثم بعد هذا كله ما أعظم الفضائل المدنية ؟ لقد قال « يفستافى إيفانوفتش » فى حـــديث خاص له بالأمس : إن أعظم الفضائل المدنية هى أن يكون فى متناول يد المرء مال ، ولكن من الطبيعى أن حديثه كان مزاحا (إننى متيقين أن يفستافى ايفانوفتش

كان يمزح) ، ولكن المغزى الأخلاقى لهذا القول هو ألا يكون المرء كلا على أحد ، ولست أنا عبئا على أحد . فعندى كسرة من خبز ، وقد تكون عفنة ، ولكنى اكتسبتها بعرق جبينى . اكتسبتها حلالا وآكلها حلالا .

بربك أخبرنى . ماذا على الرجل أن يفعل ؟ حقيقة ليس نسخ الأوراق بالعمل الخطير . ولكنى مع هذا فخور به لأننى أعمل بعرق جبينى ؟ وبعد هذا ، فأى عيب فى نسخ الأوراق أخطيئة هو ؟

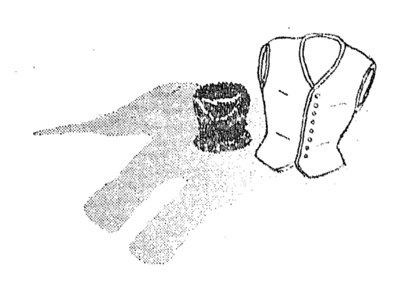
« إنه يجلس هناك ينسخ ! .. » « فأر المكتب ينسخ ! » . ماذا فى نسخ الأوراق ؟ أى عار فيه ؟ إن كتابتى جميلة أنيقة إذا نظرت إليها . «وسعادته» يرضى عنها دائما ، فأنا الذى ينسخ أكثر الأوراق أهمية « لسعادته » ، أما عن الأسلوب فلا قبل لى به !! لست ذا أسلوب قط : إننى أعرف هذا جيدا . وهذا هو سبب تخلفى عن الترقية فى الخدمة .. وحتى عندما أكتب إليك ياعزيزتى فارنيكا فإننى أكتب كما أكتب الآن .. دون زخرف أو شاعرية ، ولكن كما تتوارد الأفكار إلى ذهنى . إننى أعرف هذا جيدا . ولكن بربك أخبرينى . ماذا يحدث لو بدأ الكل ينشئون ، من سيقوم بالنسخ ساعتها ؟ أجيبينى على هذا ياعزيزتى . هل تستطيعين ؟ إذن فأنا ضرورى ، وليكفوا عن سخريتهم بى . وليسمونى فأر مكتب إذا ما كنت أبدو مثل الفأر ، ولكن ألا يرون أن هذا الفأر ضرورى ؟ . وأن هذا الفأر له نفعه ؟ . فأر يجب أن يقدر .

فأر يجب أن يكافأ . هذا هو أى نوع من الفئران أنا . ولكن كفانى حديثا عن الفيران يا عزيزتى ، فما كنت أنوى ذكرها ، ولكننى فقدت أعصابى فنسيت ، ولعله من الممتع بين وقت وآخر أن نعطى الشيطان حقه .

إلى اللقاء يا عزيزتى ، يا عزائى الوحيد ، يافتاتى الوديعة .. إننى واثق أننى سآتى لرؤيتك قريبا يا ملاكى الصغير ، وإلى أن آتى لاتشعرى بالوحدة ، وسأحضر كتابا معى أيضا . إلى اللقاء يافارنيكا .

المخلص الذى يتمنى لك كل خير

ماكار دوفشكين



٣٠ من يونية

عزيزى ماكار أليكسيفتش

أكتب هذا فى عجلة من أمرى كى أستطيع أن أنهى عملى فى موعده، ودعنى أوضح لك أن هناك فرصة لعقد صفقة طيبة، ففيدورا تقول: إن شخصاً ما يريد أن يبيع كسوة كاملة ببنطلونها وصدارها وغطاء الرأس، جديدة تماما ورخيصة أيضاً أفلا استطعت شراءها، وقد اعترفت لى أنك فى حال أحسن الآن ولا تدعى أنك لا يمكنك شراؤها! . إن هذه الأشياء مهمة ومفيدة جداً . ما عليك إلا أن تنظر إلى نفسك ياماكار، انظر إلى الثياب التى ترتديها . إنها رثة جدا حتى تثير الخجل وليس عندك شىء جديد أبداً على أى حال وأنا واثقة من هذا رغم ماتزعمه أن عندك ثيابا جديدة . ويعلم الله ماذا فعلت ببذلتك الجديدة . إنى أتوسل إليك أن تتخذ قرارك . اشترها من أجل خاطرى، كى تثبت لى أنك تحبنى .

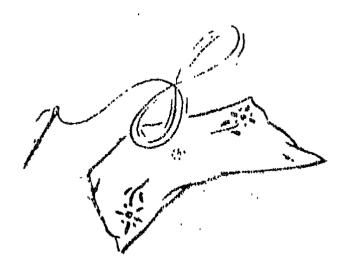
لقد أرسلت لى هدية بعض الكتان ، ولكنك تكاد تشرف على الإفلاس . إن الطريقة التى تنفق بها نقودك طريقة مروعة ، أى متلاف أنت ؟ الحق أن هذه الأشياء ليست ضرورية أبدا إننى أعرف بل إننى متأكدة تماما أنك تحبنى ،إذن فليس ثمة داع إلى أن تذكرنى بهداياك وخاصة عندما يكون من العسير على أن أتقبلها وأنا أعلم كم تكلفك . للمرة الأخيرة لا تفعل هذا مرة أخرى . . إننى أرجوك . إنك لن تفعل . . أليس كذلك ؟

لقد طلبت منى ياما كار اليكسيفتش أن أرسل إليك بقية مذكراتى ، وأردتنى أن أكملها . وأصارحك الحق إننى لا أكاد أعرف كيف استطعت أن أكتب ما كتبت . فأنا لا أستطيع أن أتحدث عن الماضى أو حتى أن افكر فيه . إننى أخشى أن أكر ببصرى إلى الوراء . وأشق من هذا على نفسى ان أتحدث عن والدتى المسكينة التى مضت وتركت ابنتها بين مخالب الوحوش الضوارى . إن مجرد تذكر هذا ينكأ جراح قلبى . وكلها جراح قريبة العهد حتى إننى لم أسترد نفسى رغم مرور عام وأحاول جهدى أن أختلى بها كى أستعيد هدوئى .. ولكنك تعرف كل شىء عن هذا كله .

لقد أخبرتك بما تراه آنا فيدوروفنا الآن ، فهى تتهمنى بالجحود ، وتنكر صراحة أن لها علاقة بتصرفات مستر بايكوف وهى

تطلب منى العودة قائلة إننى أعيش على التبرعات وأنه ما من خير سينتج عن هذا كله ثم تقـــول إننى إذا عدت فستحمل مستر بايكوف على تعويضى وإعطائى صداقا طيباً . فليغفر لهما الله . إننى أسعد حالا هنا معك ومع فيدورا الحنون التى تذكرنى بحنان مرضعتى . وأنت — رغم بعد صلة القرابة بيننا ، فإن مجرد اسمك يحميني . أما هم فلا أريد ان أعرفهم . بل أرجو لو استطعت نسيانهم . ماذا يريدون منى أكثر من هذا ؟ . تقول إن هذا كله مجرد ثرثرة ، وأنهم سيتركوننى وشأنى . الا فليستمع الله إليها .

ف د



٢١ من يونيه .

حبيبتى . . يمامتى الوديعة

لست أدرى كيف أبدأ خطابى إليك فياله من أمر غريب أن نعيش نحن هنا بهذه الطريقة . وما تمتعت فى حياتى بأيام سعيدة مثل هذه كأن الله أنعم على بأسرة ومسكن .

حبيبتى ، يا أجمل فتاة فى الوجود ، لماذا تبعثرين أنفاسك العزيزة من أجل هذه القمصان الأربعة المتواضعة التى أرسلتها إليك . لقد أخبرتنى فيدورا أنك بحاجة إليها وكان من دواعى سعادتى أن أهدى إليك شيئاً . الأمر كله لا يعدو متعتى أنا ، منعة لى أنا وحدى : إذن فدعينى أحظى بهذه السعادة يا حبيبتى : لماذا تؤلميننى وتجرحين شعورى ؟

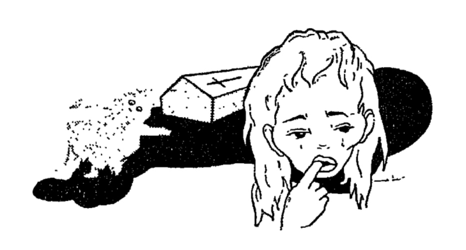
لقد أصبحت حياتى ذات قيمة يا فارنيسكا . فأنا أعيش من أجل اثنين : من أجلك ، ومن أجل نفسى ، والشىء المهم الآخر أننى سأخطو

أولى خطواتى فى المجتمع ؛ فقد دعانى جارى «راتازيف» ، هذا الموظف الذى يقيم تلك الندوات الأدبية ودعانى إلى الشاى هـذا المساء حيث نعقد إجتماعاً لقراءة الأدب .

إلى اللقاء يا عزيزتى ، لقد سطرت إليك هـذا دون غرض خاص اللهم إلا أن تعرفى أننى على مايرام ، ولقد أخبرتنى تريزا بحاجتك إلى بعض الحرير للتطريز . سأشتريه يا حبيبتى ، سأشتريه لك بالتأكيد غداً على الأكثر . سأحظى بمتعة تلبية رغبتك يا عزيزتى الصغيرة ، بل إننى لأعرف بالضبط أين يمكن شراؤه . . وسأظل .

صديقك المخلص

ماكار



٢٢ من يونية

عزيزتى فارفارا . . .

يؤلمنى أن أخبرك بشىء يثير الشجن — حادث مفجع وقع فى منزلنا. لقد توفى ابن جورشكوف الصغير بعد الرابعة بقليل من هذا الصباح ، ولست أعرف ماذا سبب وفاته ، لعلها الحمى القرمزية ، أو شىء آخر من هذا القبيل ، وكان من الطبيعى أن أذهب لمواساتهم . ويالله ! . الحق أنهم يعيشون عيشة بائسة ، وأى اضطراب يشيع فى غرفتهم ! ولا عجب . فكلهم يعيشون فى غرفة واحدة تقسمها عدة ستائر حتى لايخدش الحياء . وقد أعدالكفن، كفن بسيط ابتاعوه جاهزاً ؛ وكان الطفل فى التاسعة من عمره — طفل يبشر بالخير كما يقولون .

إنه لمن المؤلم حقاً أن ينظر المرء إليهم يافارنكا .. كانت الأم تبكى ، ولكنها كانت حائرة ذابلة ، ولعل ما خفف من فجيعتهم فى الواقع أن تقل عدد الأفواه التى يطعمونها طفلا ؛ فعندهم طفلان آخران : طفل وبنت نحيلة فى حوالى السادسة من عمرها ، إنه من المؤلم حقاً أن يرى

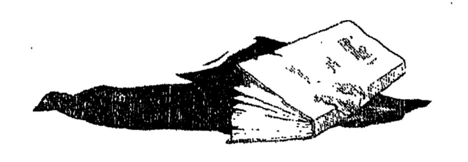
المرء كيف يتعذب الأطفال وخاصة إذا كانوا أبناءه — وهو لا يستطيع أن يبذل لهم شيئا .

وكان الأب يجلس على كرسى محطم فى جلبـــاب يلمع والدموع تنساب غزيرة على وجنتيه ، ولعلها لم تكن تنساب حزنا ، ولكن بحكم العادة فحسب . ويبدو أن بعينيه علة ما . غريب أمر هذا الرجل يافارنكا ، إنه فى خجل دائم ، إذا خاطبه المرء . ولسانه يتعثر ويرتبك دائما . ووقفت ابنته غير بعيد عن التابوت .

كانت المسكينة شاحبة تستغرق فى تفكير عميق . وإننى لأكره أن أرى طفلا يستغرقه الفكر قبل أوانه إلى هذا الحد يافارنكا ، إنه لمؤلم حقا . . ولست أدرى كيف ؟ . وكانت دميتها ترقد ممزقة على الأرض بينها وقفت هى ساكنة بلا حراك لا يحس بها أحد وإصبعها بين شفتيها ، وقدمت إليها صاحبة دارنا قطعة من حلوى فأخذتها ، ولكنها لم تأكلها .

ان هذا هو الأسى بعينه يافارنكا . . أليس كذلك . . ؟ ؟

ماكار دوفشكين

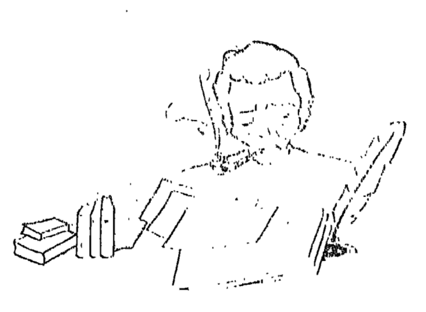


٢٥ من يونية

عزيزي ما كار أليكسيفتش . .

أعيد إليك كتابك وياله من كتاب قذر يثير الإشمئزاز . من أى حفرة ياترى جئت بهذه « الجوهرة » .. ولكن دعنا من الهزل : أتحب حقا مثل هذه الكتب ياما كار أليكسيفتش ؟ . لقد وعدتنى بالأمس أن ترسل لى شيئا آخر أقرؤه . وسنشترك معا فى قراءته . والآن إلى اللقاء ، فأمامى عمل ، وليس عندى من الوقت ما أستطيع معه أن أطيل فى الكتابة .

ف د .



٢٦ من يونية

عزيزتى فارنيكا

أصرح لك بالحق ، إننى لم أقرأ ذلك الكتاب يا عزيزتى إنما قرأت صفحات قلائل منه فحسب . ورأيت كلها سخافات قد كتبت لمجرد إضحاك الناس ، وظننت أن هذا سيسليك . وقلت لنفسى : من يدرى؟ لعل « فارنيكا » ستعجب به أيضاً . » هذا هو سر إرساله إليك .

ولقد وعدنى « راتازيف » أن يعيرنى شيئا يستحق القراءة حقا . وسيكون لديك الكثير لتقرئيه يا عزيزتى . إن « راتازيف » هذا شخص عميق ، إنسان مثقف فعلا ، بل إنه ليكتب أيضا . . ويا إلهى . أى جمال فى كتابته . ! إن له قلما طيعا ، ويعرف كيف يتخذ أسلوبا فى كتابته ، بل فى كل كلمة من كلماته ، بل والكلمات العامية التافهة التى أستعملها أنا فى حديثى إلى فالدونى أو تريزا مثلا ، يملؤها هو جمالا إذا ما استعملها .

إنى أحضر ندواته دائماً ، وبينما نجلس نحن هناك ندخن يقرأ علينا كتاباته ويمضى بنا الأمر أحياناً حتى الخامسة صباحا .. إنها حفلة أدب .. وبالروعتها من حفلة ! . إنها زهور تنثر ، حتى ليكون فى استطاعتك أن تصنعى باقةمن كل عبارة !

وهو أيضا عطوف متزن فاضل . إننى لا شيء إذا قورنت به ، فله شهرته — وأنا ؟ — ليس لى يا عزيزتى شيء منها . . إننى لا أعيش . . ومع هذا فهو يمنحنى عطفه ، بل إنه ليدعنى أنسخ له بعض الأشياء ، ولا تظنى يا عزيزتى أنها مجرد حيلة منه ، وأنه يعطف على كى يجعلنى أنسخ له فحسب بعض الأشياء ! إنهـا ثرثرة قذرة يا عزيزتى مجرد افتراء . . إننى أفعل هذا لأننى فعلا أريد أن أفعل هذا — أفعله من أجل لذتى أنا فحسب ، وهذا بالضبط هو سبب عطفه على — كى يمنحنى هذه اللذة . وأحسبنى قادرا تماماً يا عزيزتى على أن أقدر العطف والرقة فى المعامله عندما أحس بهما . إنه رجل طيب عطوف بل وكاتب مبدع أيضاً .

إن الأدب شيء عظيم يا فارنـكا . شيء عظيم حقا . هذا ما علمته منهم أول أمس . وهو شيء عميق أيضاً . وفى الـكتب شيء ما يبنى ويقوى وأشياء أخرى كثيرة أيضا ، وكله مكتوب بجمال أخاذ . إن الأدب يا فتاتى صورة . أعنى صورة من نوع ما . والأدب مرآة : هو يعبر عن الانفعالات ويوجه إلينا نقدا جميلا ويرشدنا إلى الصواب . وهو أيضا سجل الحياة . لقد تعلمت هذا كله منهم . وأصرح لك يا عزيزتى ، أننى

أستطيع أن أجلس هناك أصغى إليهم ، (مدخنا غليونى مثل الآخرين) ، ولكن . . ما أن يبدءوا المناقشة فى شتى الأمور حتى أتخلف أنا عنهم يا فارنيكا ، وهذا أكثر مما يعيه عقلى ، وطبيعى أنى أحاول أن أبدو حكيما متزنا ، ولكن الحق أننى أخجل من نفسى ، إذ أجلس هناك طيلة المساء ككتلة من خشب ، محطما عقلى بحثا عن كلمة مناسبة ؛ ولكننى لا أجد حتى هذه الكلمة ، بل نصف كلمة مناسبة . ويشعر المرء بالأسى يا فارنيكا إذ يحس أنه يقل عن مستواهم ، وكما يقول المثل : « ما من أحمق مثل الأحمق العجوز » .

وماذا أفعل أنا بوقت فراغى ، إننى أنام كلوح من خشب . . وماذا يجب ان افعل ؟.. يجب ان افعل شيئا راقيا . . يجب ان أجلس لأكتب شيئا ما : سيكون هذا مفيدا لى وللآخرين . طبيعى أن يفيد هذا يا عزيزتى . . أتعرفين كم يكتسبون من الأدب . . ؟ خذى راتازيف مثلا ، وكتابة صفحة لا شىء بالنسبة له ؛ فهو يستطيع أن يكتب أكثر من خمس صفحات كل يوم . أتعرفين كم يكتسب ؟ . . ثلثمائة روبل كما يقول .

وإذا كان مايكتب قصة مسلية أو شيئاً ما أعجب به الناس حصل على مايقرب من خمسمائة . فإذا رفضوا إعطاءه هذا المبلغ طلب ألفاً فى المرة القادمة . ولا يروعك هذا ياعزيزتى فقطوعة صغيرة من الشعر — وعنده كراسة مليئة بالقصائد — تتيح له كسباً لا يقل عن سبعة آلاف كوبك تخيلى

هـــذا ـ إنه ثمن ضيعة أو قصر . . . إنه يقول إنهم عرضوا عليه خمسة آلاف ثمنـــا لكتابه ولكنه رفض . وكم توسلت إليه أحاول إقناعه « أستحلفك الله ياراتازيفا أن تقبل هذه الآلاف الخمسة ، وليذهبوا هم إلى الشيطان . . إنها خمسة آلاف روبل نقداً » ولكنه كان عنيـــدا ، فقال « سيعطونني سبعة آلاف ! .. »

أليس حاذقاً ياعزيزتي ؟ ؟

لماذا أسهب في الحديث ؟ أليس من الأفضل أن أقتبس شيئا من « الغراميات الإيطالية » ، وهذا هو اسم كتابه ؟ . . وعليك أن تحكمي أنت بنفسك . .

«وثار فالديمير ، فقد ارتفعت في عروقه حدة العاطفة حتى وصلت إلى «درجة الغليان» وصرخ قائلا :

— سيدتي الكونتيسة ، أتعرفين : أي جنون بلغته عبادتي ؟ وإلى أي مدى بلغ هـذا الجنون ؟ كلا إن أحلامي لم تخدعني ـ إني أحبك بشغف وشيطنة . أحبك كرجل مجنون . إن كل الدماء التي في جسد زوجك لم تستطع أن تطفيء لهيب قلبي المدمر الذي يحرق صدري المكدود . . آه يازنايدا . حبيبتي زنايدا .

— فلاديمير ،

هكذا همست همسة مكتومة وهى ترتمى على صدره . وهنـــا هتف «سملسكى» المدله مرة أخرى

— حبيبتى زنايدا !

« وكانت أنفاسه تنطلق فى لهثات حارة متقطعة .. وكان مصباح الحب يحترق مضيئاً على مذبح الغرام ، فتكتوى بناره قلوب العاشقين البائسين ..

وهمست مرة أخرى فى نشوتها.. على حين أخذ صدرها يعلو وينخفض ووجنتاها تحترقان ، وعيناها تشعان ناراً ..

ـ فلاديمير

. . وهكذا ولد اتحاد جديد مخيف !

* * *

وبعد ذلك بنصف ساعة دخل الكونت العجوز مخدع زوجته . وقال العجوز :

— حسنا ياحبيبتى ألا يجب أن نعد موقد الشاى ترحيبـــاً بضيوفنا .

وربت على وجنتيها .

* * *

والآن . مارأيك فى هذا يا فارنكا ؟ . لعل به شيئاً من النزق والخفة ولكنه جميل ، ويمتع أيضا فى الوقت نفسه . ولنحكم على الرجل بما هو جدير به، وإليك قطعة أخرى من قصتة برماك وزليخا . تخيلى يا عزيزتى أن الفاتح السيبيرى المتوحش المخيف يحب زليخا : إبنة القيصر السيبيرى كوتشوم . وزليخا الآن أسيرته . وكما ترين هذا شىء جديد من أيام إيفان المخيف .

— أنت تحبيننى يازليخا . قولى مرة أخرى إنك تحبيننى .

. . أنت تحبيننى يازليخا

وهمست زليخا

— إنى أحبك حقا يا برماك

— إذن بحق الأرض والسماء : إنى أشكرك ، فلقد أسعدتنى بحق السماء والأرض ، ومنحتنى كل شىء : كل شىء كانت تبحث عنه روحى المعذبة منذ ولدت . من أجل هذا سعيت إلى هذا المكان يانجمى المرشد ولهذا سعيت إلى ما وراء سلاسل جبال الأورال . وسيرى العالم كله الآن حبيبتى زليخا . ولن يقف فى طريق إنسان أو شيطان أو وحش من الجحيم ، آه لو استطاع البشر أن يفهموا الغرام الخفى الذى يعتمل فى قلبها الرقيق ، وأن يروا أى شعر يكمن فى دمعاتها الصغيرة ، ألا فلتعذبنى

أيها الكائن الذى ليس من هذه الأرض حتى أشرب من هذه القطرات السماوية » .

وقالت زليخا

— يرماك ، إن العالم قاس ، والبشر ظالمون . سيطردوننا من بينهم ، سيضطهدوننا يا حبيبي يرماك . وفتاه مسكينة مثلى تعيش وسط الثلوج فى خيام أجدادها ستذبل حتما فى مجتمعك القاسى ، ذلك المجتمع المشحون بالزيف والخضوع للعرف ، والصلف والكبرياء ، إنهم لن يفهمونى قط ، يا منية قلبي »

وصرح يرماك وعيناه تشعان ناراً : هل هذا صحيح ؟ إذ فليغنى سيف القوازق ويصفر جذلا فوق رءوسهم » .

تخيلى إذن يا « فارنيكا » شعوره عندما علم أن « زليخا » قد قتلت بطعنة خنجر ، لقد تسلل كوتشوم الأعمى العجوز تحت جنح الظلام إلى خيمة يرماك وطعن ابنته ، كان يعلم أنه إنما كان يسدد طعنة قاتلة إلى الرجل الذى سلبه عرشه وصولجانه.

وصرخ يرماك فى ثورة حقده ، وهو يشحذ سيفه على الصخر الصلد:

— إننى لأعشق سيفى وأنا أشحذه فى الصخر ، سأرتوى من دم قلبه ، ثم أهشم الشق ، وأمزقه إربا إربا .

وحينما لم يستطع « يرماك » أن يتحمل مصيبة فقده زليخا .. «ألقى بنفسه فى نهر إرتش ... وانتهت القصة » .

وإليك قطعة أخرى كتبها بطريقة « هزلية » لمجرد إضحاك الناس :

هل تعرف إيفان بروكوفيفتش زلتوموز؟ . إنه الرجل الذى عض بروكونى إيفانوفتش فى ساقه . إن إيفان بروكوفيفتش شخصية متزنة ولكن له مزاياه النادرة على حين أنه على العكس من هذا يغرم بروكونى إيفانوفتش باللفت والعسل، وعندما كانت بيلاجيا أنتونوفنا صديقته... هل تعرف بيلاجيا أنتونوفنا ؟ إنها المرأة التى ترتدى ملابسها الداخلية فوق ملابسها الخارجية دائماً ..

أى سخرية يا فارنكا ؟ وأى فكاهة فذة ؟ .. لقد ضحكنا حتى كدنا نقضى من الضحك عندما قرأها علينا بصوت عال . فأى نوع من الرجال هو ، ليسامحه الله . لعلها خيالية إلى حدما ، وبها كثير من النزق ، ولكنها بريئة كلها ، وليس بها شىء من الفكر الحر أو المثل الراديكالية . وأشعر أنه من واجبى يافارنيكا أن أقول إن راتازيف رجل متين الخلق ، ومع هذا فهو كاتب ممتاز — وهذا أكثر مما يمكن أن يقال عن معظم الكتاب .

ولكن أى أفكار تافهة تطرأ للمرء أحياناً، ماذا لوكتبت أنا أى شىء؟ تخيلى أنك رأيت فجأة كتاباً عنوانه « أشعار » بقلم ماكار دوفشكين » .

« ماذا ستقولين ساعتها يا ملاكى الصغير ؟ .. » « وماذا يكون شعورك . ؟
أما عنى ياحبيبتى فلن أجرؤ على إظهار نفسى فى ضاحية « نفسكى » أبدا .
كيف يكون إحساسى عندما أشعر أن كل شخص ينظر إلى قائلا : إليكم
دوفشكين . . الشاعر والأديب . . دوفشكين بلحمه ودمه ؟ » . وماذا
أفعل بأحذيتى ساعتها ؟

وبهذه المناسبة أحب أن أذكر أنها دائماً مرقعة . وأن نعالها تصفق
أحياناً بطريقة تثير الخجل . وأى فظاعة لو رأى الجميع أن دوفشكين
الشاعر والأديب يمشى فى أحذية بالية مرقعة ؟. وماذا ستقول الكونتيسة
الدوقة لو رأتنى ؟ لا أظن أنها ستلاحظ هذا : فالحق أن الكونتيسة
لا تعنى أبدا بالنعال وخاصة نعال كاتب حكومى . [فالدنيا ممتلئة بالنعال!]
ولكن أصدقائى سيتخلون عنى ، وسيكون أولهم راتازيف ، وهو كثيرا
مايزور الكونتيسة «ب» — كل يوم تقريباً كما يقول . وهم يستقبلونه
كصديق قديم ويرفعون الكلفة معه . إنه يقول : إنها امرأة رائعة . .
أديبة لحماً ودماً . أى مخلوق رائع راتازيف هذا .

ولكن دعينا من هذا كله ، لقد كنت أكتب لمجرد لذة الكتابة ،
ولكى أسليك . إلى اللقاء ياعزيزتى لقد كتبت قدرا كبيرا من اللغو
الفارغ ، وهذا يرجع إلى انشراح صدرى اليوم فقد تناولت الغداء مع
راتازيف ، وشربو الخمر جميعاً ويالهم من شياطين، وما كان يجب أن

أذكر ذلك ولكن لاتتخيلى أى شر من ناحيتى فالأثر كله لايعــــدو الحديث . سأرسل إليك الكتب ، سأرسلها إليك بالتأكيد ، هناك كتاب بقلم « بول دى كوك » يتخاطفه الجميع فى المنزل الآن ، ولكن ليس هذا بالكتاب الذى يناسبك قراءته ياعزيزتى ، لايناسبك بأية حال ، مثل هذه الصفحات لاتناسبك . ويقال إن هذا الكتاب قد أثار سخط كل نقاد بطرسبرج .

أبعث إليك برطل من الحلوى اشتريته خصيصاً لك . تمتعى بهـــا ياحبيبتى ، واذكرينى كلما تناولت إحداها ، يجب أن تمتصى الفاكهة ولاتقضميها ياعزيزتى والا أفسدت أسنانك . هل تحبين الفواكه المجففة . إكتبى إلى إذا كنت تحبينها . وداعاً يافارنيكا . وليكن المسيح معك ياعزيزتى الصغيرة.. وسأظل .

أخلص الأصدقاء

ماكار



٢٧ من يونيه

عزيزى ماكار . .

.. تؤكد لى فيدورا أن هناك من يبغى مساعدتى ، بأن يهيء لى وظيفة لا بأس بها كمربية أطفال . هل أوافق أو لا ؟ بماذا تنصح ؟ . لو وافقت فلن أكون عبئا عليك بعد ؛ والوظيفة مجزية أيضا . ومن ناحية أخرى فإن فكرة دخول منزل غريب ترعبنى . إنهم ملاك أرض وسيسألون عن ماضى . فبماذا أخبرهم ؟ أضف إلى هذا ما تعرفه عنى من نفور ، فأنا أخشى الناس . ولقد ألفت الأماكن التى عشت فيها طويلا وأحس بالسعادة فيها حتى لو كانت الحياة فيها قاسية ، وهذه الوظيفة فى مكان قصى ، ولا يدرى أحد ماذا ستكون مهمتى .

لعلى سأعنى بالأطفال ، ويبدو أنه من العسير معاملتهم ، فلقد تبدلت

عليهم مربيتان فى عامين . أرجو أن تبعث إلى بنصحــك ياماكار أليكسفتش . هل أذهب أو لا . . ؟ ؟ . ولماذا لا تزورنا ؛ إنا لا نراك كثيرا فى هذه الأيام . . اللهم إلا فى أيام الآحاد وفى الكنيسة فحسب . أنت أيضا تنفر من الناس مثلى تماماً، ولكن تذكر أننى من ذوى قرابتك. أو هل لا يعدو الأمر كله إلا أنك تحبنى ، وأنا وحيدة حزينة ، وعندما يأتى المســاء أجلس وحيدة مع نفسى إذا ما خرجت فيدورا لقضاء أية حاجة — وأجلس أنا أفكر وأفكر وأتذكر الأيام الخوالى كل ما كان حزينا وكل ما كان ممتعا كلها تمضى أمام عينى ثم أسترجع كل الوجوه التى أحببت وألفت مرة أخرى (حتى لأكاد أراها رأى العين، ويراودنى خيال أمى أكثر من الآخرين ، ثم أى رؤى وأحلام تراودنى؟

أحس أن صحتى تتدهور ، فأنا ضعيفة جدا ، وعندما استيقظت هذا الصباح أصابنى الإغماء . ولقد تملكنى سعال خبيث لفترة ما ، إننى لأعتقد أن أجلى قريب ، ولكن من يعنيه هذا ؟ من سيذرف دمعة من أجلى ؟ ومن سيشيع جثمانى إلى مقره الأخير ؟ بل لعله كتب على أن أموت فى منزل غريب . وفى مكان غريب ! . يا إلهى . . كم هى حزينة هذه الحياة !

بربك لماذا تغذينى بالحلوى طوال الوقت يا ماكار ؟ ألحق أننى لا أستطيع أن أتخيل مصدر هذه النقود أفلا تقتصد نقودك ياصديقى العزيز ؟ .

فيدورا تبيع قطعة من قماش طرزتها أنا ،وهم يعرضون خمسين روبلا ثمنا لها وهو ثمن معقول ، لم أكن لأتوقعه . سأعطى فيدورا ثلاثة روبلات ، ثم أخيط فستاناً لنفسى : فستاناً بسيطاً ، ولكنه سيدفئنى ، وسأعمل صدارا لك سأفصله لك بنفسى ومن قماش جيد أيضا .

ولقد أحضرت فيدورا كتاب « حكايات إيفان بالكين (١) » وها أنذا أبعث به إليك لتقرأه إذا أردت ، ولكن أرجوك ألا تهمله فيتسخ ، ولا تحتفظ به طويلا فهو ليس كتابى . . وقد قرأت هذه القصص أنا وأبى معاً منذ سنتين ، وأحزننى الآن أن أقرأها وحدى : إذا كان عندك أى كتب فأرجو أن ترسلها إلى — اللهم إلا إذا كانت من عند راتازيف . ومن المؤكد أنه سيهدى إليك مؤلفاته عندما تطبع ، ولكن هذا لن يحدث . بربك كيف تعجب بها يا ماكار اليكسيفتش ؟ . إنها لا تعدو مجرد تفاهات .

والآن وداعاً ، لقد أفضت كثيرا ، ولكنى أحب أن أثرثر أحيانا عندما أكون حزينة . إن الثرثرة كالدواء ، لأننى أخفف من هموم عقلى بهذه الطريقة وداعاً يا صديقى . . . وداعاً

المخلصة

ف . د

---

(١) مجموعة قصص بقلم بوشكين كتبت فى عام ١٨٣٠ .



فارفارا أليكسيفنا .. ياعامتى

ألا تخجلين من استسلامك لمثل هذا اليأس ؟ — وكيف يمكن — ياملاكى — أن تراودك مثل هذه الأفكار ؟ إنك لست مريضة على الإطلاق ياحبي ، لست مريضة على الإطلاق فأنت تزدهرين .. تزدهرين فحسب ، هذا كل مافى الأمر . ولعلك شاحبة قليلا ، ولكنك تزدهرين رغم ذلك . وأى أحلام ورؤى تلك التى تحلمين ؟ يجب أن تخجلى يا حبيبتى الصغيرة . إنك تستطيعين أن تطرديها جميعاً بإشارة من أصابعك . وكيف أنام أنا نوما عميقا ؟ — أو تظنين ذلك لأنه لايزعجنى شيء ؟ لماذ إذن لاتتمثلين بي ؟ إننى أنام كالوح من خشب ، وفى أتم صحة وقوة حتى لكأننى شاب صغير إننى فعلا كذلك .

دعيك من هذا كله إذن يافارنكا ، وتمالكى أعصابك . إننى أعرف

ماذا يدور فى رأسك الصغير . فأى تفاهة تثير فيك الأحلام والقلق .
ألا تكفين عن ذلك من أجلى ؟ أما عن وظيفة المربية هذه فلا تقبليها
أبداً . . كلا ، ثم كلا ، بربك كيف يمكنك أن تفكرى مثل هذا التفكير !
والمكان قصى أيضا . كلا ياعزيزتى . لن أوافق على هذا . وأعارض
الفكرة بكل قوتى .

إننى لأفضل أن أبيع معطفى القديم أولا وأمشى فى ملابسى
الداخلية ولا أدعك تقاسين أبدا من الحاجة . كلا يافارنيكا . ليس هذا
ما يناسبك : إنها حماقة لا أكثر . وأنا واثق أن فيدورا هى الملومة فى
هذا كله ، فهذه المرأة الحمقاء هى التى أدخلت هذه الفكرة فى رأسك ،
فلا تستمعى إليها ياعزيزتى ، ولعلها ترمى إلى أغراض لا تعرفينها ، وهى
حمقاء تغيظنى ثرثرتها ، ولقد ظلت تعكر حياة المرحوم زوجها حتى
أدت به إلى الموت لعلها أغضبتك ، ولكن حتى لو حدث هذا
فكلا ثم كلا ياعزيزتى ، فلا تقبلى هذه الوظيفة من أجل أى شىء
فى العالم .

وماذا سأفعل أنا ؟ وأى شىء سيبقى لى ؟ كلا ياعزيزتى فارنيكا .
اطردى هذا الموضوع كله من عقلك . وبعد هذا كله ماذا ينقصك هنا؟
وأى متعة تمنحيننا — أنا وفيدورا وأنت مغرمة بنا أيضا . لماذا إذن
لا تعيشين مطمئنة مرتاحة كما نعيش نحن ؟ تستطيعين أن تقرئى أو تحوكى
الملابس أو مجرد أن تقرئى ولا تحوكى — فقط لا تبتعدى عنا أبدا ، فذهابك

بعيداً ان يأتى بخير . سآتى بالكتب التى تطلبين . . وسنقوم بنزهاتنا مرة أخرى ، ولكن تعقلى ولا تفكرى أبداً فى مثل هذه الحماقات وسآتى لزيارتك سريعاً .

إغفرى لى إذ أصرح لك بالقول — ولكنى لا أملك إلا أن أصرح لك : إن ما قلته عار يا عزيزتى — عارمشين . طبيعى أنى لست بالرجل المثقف ، والتعليم الذى حظيت به لايساوى كوبكا كما يقول المثل . ولكنى لا أريد أن أتحدث عن نفسى بل عن « راتازيف » . — اغفرى لى ياعزيزتى ، ولكن يجب أن أتشفع من أجله ، فهو صديق ومن واجبى أن أفعل هــذا . إنه يحسن الكتابة حقاً بل الواقع أن كتاباته ليست رديئة على الإطلاق ، ولا أستطيع أن أوافقك على الرأى فى هـذا — إننى بصراحة لا أستطيع ، فهو يكتب بطريقة مبدعة كلها قوة ، وبأسلوب حديث لطيف ، وفى كتاباته كل أنواع الأفكار أيضاً . ولعلك قرأتها وأنت فى غير استعداد لتقبل ما يكتب يا فارنكا . ولعلك كنت منحرفة المزاج — لعلك كنت غضبى مع فيدورا أو ضايقك شىء ما . أقرئيها مرة أخرى يا فارنكا وأنت فى حالة هادئة وبذلى لها عناية أكثر — اقرئيها عند ما تكونى مرحة راضيــــة معتدلة المزاج ، وفى فمك مثلا قطعة من الحلوى .

وينبغى أن أعترف طبعا أن هناك كتابا أفضل من راتازيف : ولعلهم أفضل منه بكثير ، كتابا لا بأس بهم ، ولكن راتازيف كاتب لا بأس

ه أيضاً . إن كتاباتهم جيدة ولكن كتاباته ليست رديئة كذلك ، وهو يكتب بطريقته الخاصة ، يكتب ما يريده وما يرضيه .

وداعاً ياحبيبتى — فلا أستطيع أن أكتب أكثر من هذا فأنا مشغول اليوم . ولكن تذكرى ياطائرى الصغير ألا تضايقى نفسك مرة أخرى بأفكار كئيبة ؛ وليكن الله معك وسأظل أنا . .

صديقك المخلص

ماكار

ملاحظة : أشكرك كثيراً على الكتاب الذى أرسلته ياعزيزتى — سأقرأ مؤلفات بوشكين أنا أيضاً سآتى لزيارتك حينما يقبل المساء . .



١ من يولية

صديق العزيز ماكار أليكسيفتش

.. الحق أنى أعتقد أنه لا حياة لى هنا بينكم . ! وقد وجدت بعد روية أنه من الخطأ أن أرفض مثل هذا العرض السخى الذى أتيح لى ، فعلى الأقل سأتكسب قوت يومى ، وسأبذل جهدى حتى أصبح جديرة بعطف أسرة غريبة ، بل إننى سأحاول أن أغير من شخصيتى لو اقتضى الأمر . وطبيعى أنه من العسير طبعا على نفسى أن أعيش وسط غرباء ، وأن أحاول إرضاءهم وألا تكون لى حياتى الخاصة ، ولكن ربما أعاننى الله على ذلك .

ولست أرضى أن أظل مخـــلوقا نافرا خجولا طيلة حياتى ، ولقد حدثت لى مثل هذه الأشياء من قبل ، وما نسيت بعد أيامى فى المدرسة الداخلية ولا زلت أذكر أيام الآحاد عند ما كنت أتمادى فى شقاوتى فى المنزل ، وإذا ما عنفتنى امى لم يتألم قلبي قط ، ولكن إذا ما اقبل المساء ،

اقبل معه الأسى إذ أذكر أن على أن أذهب إلى المدرسة فى التاسعة — المدرسة حيث كل شىء غريب بارد صارم ، والمدرسات عابسات الوجوه أيام الاثنين ثم يغلبنى البكاء ، فأتنحى ركنا أبكى فيه خلسة لئلا يقال عنى إنى فتاة كسول ، وما كانت الدروس هى التى تثير بكائى . . . ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ مع الزمن ألفت المدرسة أيضا حتى بت أبكى إذا كان على أن أترك أصدقائى وأفارقهم .

وأحسب أنه ليس من العدل كذلك أن أكون عبئاً عليك وعلى فيدورا ، إن التفكير فى هذا يعذبنى . وأنا أكتب إليك بصراحة ، لأننى تعودت على هذه الصراحة معك ألا أرى كيف تستيقظ فيدورا مع ظلام الفجر كى تبدأ غسيلها طيلة النهار على حين تحتاج عظامها العجوز الراحة كما تعلم ؟ ألا أرى أنك تنفق ما تملك على ، حتى آخر كوبك معك مع ضآلة مرتبك أيها الصديق ؟

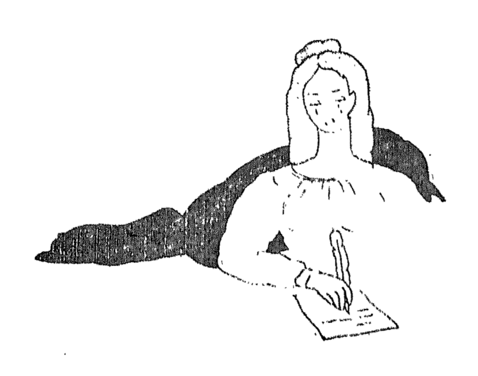
لقد كتبت إلى تقول : إنك مستعد ان تخلع معطفك وتبيعه كى تقينى شر الحاجة ، وإنى لأصدقك ياعزيزى . إننى لأصدق قلبك العطوف ، وهذا هو ما تقوله الآن إذ يدا عبك أمل هذه العلاوة التى تنتظرها ، ولكن ماذا فيما بعد ، وأنت تعلم أننى مريضة على الدوام لاتفرغ لى حاجة إلى دواء أو كساء ، وليست بى طاقة على العمل المستمر كما تفعل أنت ، وإن كان ذلك يسعدنى ؟ وحتى لو استطعت فليس هناك عمل كاف دائما إذن ماذا بقى لى ؟ . أن أحتضر هباء وأنا

أرقبكم أيها المساكين ؟ وكيف يتأتى أن أكون أقل فائدة لأى منكما ؟ إننى أتعلق بكما من كل قلبى . وأنتم أعزاء جدا إلى نفسى ، ولكن هذا ما كتب على ، أستطيع أن أحب ، ولكنى لاأستطيع أن أحول حبى إلى خير . فأ كافئكم على عطفكم ، فلا تسبقونى أكثر من هذا — أفلا تفكر فى هذا كله وتخبرنى برأيك النهائى .

وفى انتظار ردك سأظل .

المخلصة

ف . د



١ من يولية

أى أوهام وأى خرافات يافارنكا هذه التى تكتبين ! أنت لاتكادين تنفردين بنفسك حتى تقبل كل أنواع الخاطرات إلى رأسك الصغير ، فإذا بك لاتحبين هذا ولا تحبين ذاك : ويبدو لك كل شىء مقلوبا رأسا على عقب ولكنى أعود فأقول لك : إن هذه كلها أوهام وخيالات . هلا أخبرتنى ماذا تحتاجين بالذات ؟ ما ينقصــــك بالضبط ؟ إن كلينا متعلق بالآخر . وكلينا قانع وسعيد ، ماذا يمكن أن ننشد أكثر من هذا ؟ وماذا يمكن أن نجد بين الغرباء ، ــــ أنت تجهلين الغرباء ياعزيزتى ! وكان أحرى بك أن تسأليني كيف يكونون . إنى أعرف من هم أعرفهم هذا جيدا ، فلقد ذقت خبزهم . إنهم أشرار يافارنكا وخبثهم أكثر مما تحتمله طيبتك ، وسيغصون حياتك بعبــــارات التأنيب وبالنظرات الخبيثة على حين أنك تعيشين معنا هنا فى دفء وحنان ناعمة

البال كطائر صغير فى عشه ، فإذا طرت بعيدا فماذاسنفعل نحن المساكين وقد سلبنا قلوبنا ؟ — ماذا أستطيع أنا العجوز أن أفعل وأنت تقولين إنه لانفع فيك لنا ؟ فكيف يمكن أن يكون هذا ؟ . لست عديمة النفع على الإطلاق . . فكرى جيدا ترى هذا فأول شىء أن لك تأثيراً خيرا علينا . . خذى مثلا لذلك أننى أفكر فيك الآن وهذا يسعدنى جدا . وأحيانا أضع كل مشاعرى فى الخطابات التى أكتبها إليك ثم أنتظر ردا مفصلا أستطيع أيضاً أن أشترى لك أشياء لطيفة تريديها ، بل لقد اشتريت لك قبعة . . أو هل هناك أشياء تريدين منى أن أفعلها ؟ وماذا يجب أن أفعل — أنا العجوز الوحيد ؟ . ماذا أصلح له ؟ لعلك لم تفكرى فى هذا وكان من الواجب أن تفكرى فيه .

أنظرى إلى الموضوع من هذه الزاوية : كيف تكون حال العجوز بدونك ؟ لقد تعودت أن تكونى قريبة منى . وإذا مامضيت أنت فليس أمامى سوى شىء واحد أفعله أمضى إلى نهر النيفا وأضع حدا لكل شىء وإلا فأى شىء أمامى سوى ذلك .

آه يافارنكا . . ياحبيبتى فارنكا : يبدو كأنك تحبين أن أوضع على عربة وأمضى وحيدا إلى مقابر نولكوفو حيث لايكون لى من خليل سوى شحاذ عجوز ، يرقبهم وهم يهيلون التراب على قبرى . ثم يمضون بعد أن يتركونى هناك نسيا منسيا . إنها لخطيئة يا عزيزتى — خطيئة كبيرة أن يتمنى المرء مثل هذه الأشياء .

إننى أعيد إليك كتابك يافارنكا ، وإن شئت أن تعرفى رأيى ياصديقتى الصغيرة فإليك هو : إننى لم أقرأ فى حياتى قط كتابا أفضل منه . وإننى أظل أسأل نفسى ياعزيزتى : كيف استطعت أن أظل جلفا فظا خشنا هكذا .. ؟ ليغفر لى الله . . ماذا كنت أفعل بنفسى ؟ من أى غابات أقبلت ؟ الحق أننى لست أعرف شيئا ياعزيزتى ، لست أعرف شيئا على الإطلاق ، إننى رجل جاهل يافارنكا ؛ فما قرأت إلا القليل القليل جدا . يكاد يكون لاشىء سوى كتب ثلاثة هى كل ماقرأت ، وقد قرأت الآن ناظر المحطة[1] فى كتابك الذى أرسلته إلى . وهكذا ترين ياحبيبتى فارنكا أن الأمر قد يصل إلى أن يعيش المرء فترة طويلة من عمره وهو لا يدرى أبدا أن فى متناول يده كتابا يروى قصة حياته كاملة وببساطة كأنها أغنية وما كان غامضا من قبل يصبح واضحا كلما مضى الإنسان فى القراءة ، ثم يتذكر المرء أشياء ، ويفهم أشياء .. ويدرك أشياء .

شىء آخر أحببته فى الكتاب . ذلك أن الكتب الأخرى كثيراً ما تكون عالية المستوى حتى إننى أقرأ وأقرأ ولا أستطيع أن أفهم شيئا فيها يتصل بحياتى أنا ، وأنا بطىء الفهم بطبعى لاتناسبنى الكتب الممتازة جداً ، ولكن عندما تقرئين هذا الكتاب تحسين كأنما قد كتبته بنفسك

---

(١) إحدى قصص بوشكين فى كتابه (حكايات إيفان بلسكين)

ولو شئنا الإيضاح لقلنا كما لو كان قطعة من قلبى أنا — مهما كانت هذه القطعة — وهى أمام الجميع ليقرءوها فأى كتاب هو ؟

الحق أنه واضح وبسيط ، حتى لأستطيع ان أكتبه أنا بنفسى . ولم لا ؟ إننى لأحس بالأمور كما هو مكتوبة فى الكتاب بالضبط . ألم أمر بنفسى بالتجربة التى مر بها سامسون فيرين[1] المسكين ؟ وأى عدد كبير من المساكين من أمثال فيرين يعيشون بيننا ؟ ألم يصف هو كل شىء بإبداع ؟ لقد كدت أبكى ياعزيزتى وأنا أقرأ كيف أدمن الخمر ، وكيف كان يشربها حتى يفقد وعيه ثم يرقد نائما طيلة اليوم على جلد ماعز ، أو يجلس يمسح الدموع بطرف كم معطفه القذر وهو يفكر فى ابنته الضالة المسكينة هذه هى الحياة !

اقرئى هذا الكتاب مرة أخرى يافارنيكا ، فهو شىء حى لقد رأيت هذا بنفسى وكل ما فيه ألمسه حولى خذى مثلا فريزا أوكاتبنا المسكين ، أليس هو سامسون فيرين آخر وإن يكن اسمه جورشكوف ؟ كلنا نعيش هكذا ، وقد يحدث هذا الشىء نفسه لأى شخص منا قد يحدث هذا حتى لهذا الكونت الذى يعيش على « النفسكى » ، وإن بدا هـذا غريبا نظرا لعلو مراكزهم ، ولكن علو المركز هذا لن يغير من الأمر شيئاً . نعم أى شىء قد يحدث بل لعله قد يحدث لى انا . أترين كيف تمضى الحياة

---

(١) إحدى شخصيات قصة ناظر المحطة ..

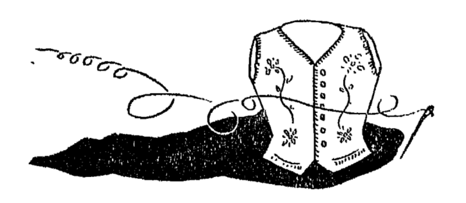
ياعزيزتى . . إذن كيف تفكرين فى هجرنا ؟ . لعل رذيلة فيرين تتملكنى أنا أيضا ثم يتحطم كل منا ، إذن أستحلفك بالله يا عزيزتى أن تطردى هذه الأفكار الشريرة من عقلك ولا تعذبينى أكثر من هذا !

كيف يمكنك عندئذ أن توفرى لنفسك الغذاء أو أن تحمى نفسك من أذى الأشرار يافرخى الصغير المسكين ؟ بربك يافارنكا لاتلقى بالا لكل نصيحة فى غير موضعها . وستفعلين خيرا لو قرأت كتابك مرة أخرى وبمزيد من العناية وسيفيدك هذا كثيراً .

لقد أخبرت « راتا زيف » عن « ناظر المحطة » ، وهو يصر على أنها قصة من طراز قديم ، وأن كل الكتب الجيدة فى هذه الأيام بها صور وإيضاحات متعددة ، ولم أستطع أن أفهمه جيداً . لقد سلم معى بان بوشكين كاتب ممتاز ، وأنه أضاف شيئا ما إلى مجد روسيا ، وقال شيئا كثيراً فى هذا المجال ، لكن الحق يافارنكا أنه كتاب جيد . كتاب جيد جدا ويجب أن تعيدى قراءته وبمزيد من العناية اعملى بنصيحتى وأسعدى رجلا عجوزاً بما تبدين له من طاعة ، وسيجزيك الله خيراً يا حبيبتى . إنه سيجزيك بكل تأكيد

صديقك المخلص

م . كار .



٦ من يولية

عزيزى ماكار

« اليوم أحضرت لى فيدورا خمسه عشر روبلا من الفضة ، وفرحت المسكينة عندما أعطيتها ثلاثة روبلات . إننى أكتب هذا فى عجلة من أمرى : فأنا أقص نموذجا (بترونا) لصدار لك من نسيج فاخر : أصفر مزين بالزهور . أرسل إليك كتاباً آخر عبارة عن مجموعة من القصص ولقد قرأت بعضها . فاقرأ القصة التى عنوانها المعطف [١]

وأنت ترغمنى على قبول دعوتك إلى المسرح ، أليس هذا بذخاً ؛ إذا كان لابد من ذهابنا فلتشتر التذاكر فى أعلى التياترو ، وأنا لم أذهب إلى المسرح منذ فترة طويلة حتى إننى لا أستطيع أن أتذكر متى ذهبت آخر مرة . ولكنى أعود فأكرر : ألا يكلفك هذا كثيرا ؛ إن فيدورا دائبة على هز رأسها وهى تقول ، إنك تنفق أكثر من دخلك ، وإنى

---

(١) قصة بقلم جوجول كتبها فى عام ١٨٤٢ .

لأشاركها فى الرأى فما أكثر ما أنفقت على أنا وحدى ، وأخشى أن يصيبك شىء ما إذا ما مضيت على هذا المنوال ، ولقد نقلت فيدورا إلى ما تناهى إلى سمعها عن مشاحناتك مع صاحبة الدار حول إيجار غرفتك ، فأقلقنى هذا ياماكار اليكسيفتش .

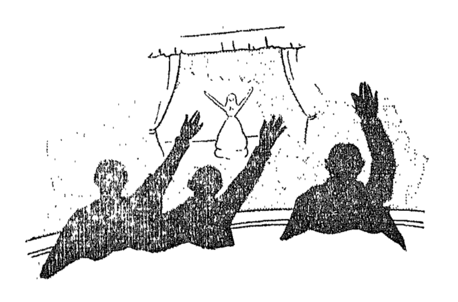
وداعاً . إننى متعجلة الآن ، فأمامى أمر صغير يجب أن أعنى به : يجب أن أغير شريط قبعتى ! . .

ف . د

ملاحظة :

إذا ما ذهبنا إلى المسرح فسأضع قبعتى الجديدة وشالى التل الأسود .

سيكون هذا لطيفاً أليس كذلك ؟



٧ من يولية

أعز أعزائى فافار أليكسيفنا

لكى أصل ما انقطع من حديثنا بالأمس دعينى أضيف ياحبيبتى، أننى كنت أنا أيضا ذات يوم شابا طائشا هائما بممثلة، ولم يكن هذا بأغرب شىء فالغريب هو أننى لم أشاهد هذه الممثلة سوى مرة واحدة، وعلى خشبة المسرح، ومع هذا كنت غارقا حتى أذنى فى هواها.

وكان جيرانى فى ذلك الوقت نصف دستة من الشباب الطائش، وتوطدت صداقتى بهم على كره منى، وإن تباعدت بلباقة عن مشاركتهم فى مغامراتهم، ولكنى ظللت على ودى بهم مراعاة للجيرة فحسب، وكم من أمور حدثونى بها عن هذه الممثلة! ففى كل مساء، وكلما كان لها حفل، حجزت عصبتهم بقضها وقضيضها المقاعد فى أعلى الشرفة، فلم يكن كل ما معهم يزيد على كوبك يواجهون به نفقات الحياة العادية. ثم يجلسون

هناك ، ويصفقون ويهتفون لها قبل أن تنزل الستار مرة بعد أخرى ، وهم يصيحون كالمجانين ، وإذا عادوا إلى المنزل لم يخطر ببالهم شيء اسمه النوم ، بل جلسوا يتحدثون عن حبيبتهم ، جلاشا ، طيلة الليل . . . كان كلهم متيم فى حبها ، كلهم كرجل واحد ، كانت العصفور الجميلة تغرد فى كل قلب .

وانتهى بهم الأمر أن شغفونى بها حبا ولم أكن سوى شاب عاجز لا حيلة لى وقبل أن أدرى وجدت نفسى فى أعلى الشرفة مع الآخرين . وحيثما جلست لم أكن أرى غير جزء من المسرح فحسب ، ولكن لم يفت أذنى شاردة أو واردة .

والحق أن العصفورة كانت حلوة الصوت : تغريد يتعالى عذباً كأنه بلبل يغنى وكنا نصرخ حتى بحت أصواتنا ، وصفقنا حتى التهبت أكفنا ، واجتذبنا أنظار الجميع حتى طرد أحدنا فعلا . وعدت إلى منزلى وأنا فى شبه حلم وفى جيبى روبل واحد هو كل ما أملك حتى أقبض مرتب الشهر القادم بعد عشرة أيام ! وماذا تظنيننى فعلت بعد ذلك يا عزيزتى ؟ فى اليوم التالى مباشرة ، وقبل إنتهاء موعد المكتب ، أنفقت بقية نقودى فى شراء عطر وصابون معطر لها من عند الحلاق الفرنسى ، أما لماذا اشتريتها فهذا ما أعجب منه حتى اليوم ؟

وأمضيت يومى ذاك دون غذاء ، ولكنى استنفدت وقتى واقفاً تحت

نافذتها ، وكانت تعيش في الشارع الثالث في « نفسكي » وما أن انتهيت من عملي حتى هجعت ساعة في منزلي ثم عدت أحوم تحت نافذتها في نفسكي . وداومت على هذه الحال شهرا ونصف الشهر ، وقد أكترى عربة عند منعطف الطريق ، أمضى بها مسرعة تحت نافذتها وأنا في أوج أبهتي . وكان من الطبيعي أن تثقلني الديون ، ولكن عاطفتي خمدت آخر الأمر وسئمت الموضوع كله .

يا عزيزتي هذا هو المستوى الذي يمكن أن يهبط إليه الرجل الشريف إذا هام بممثلة

ولكني كنت شابا نزقا في تلك الأيام . .

م . د



٨ يولية

عزيزتي فارفارا

أسارع بإعادة الكتاب الذي تلقيته منك في السادس من هذا الشهر، وفي الوقت نفسه أنتهز هذه الفرصة للتعبير عن رأيي.

ألم تكن قسوة منك ياعزيزتي أن تبعثي إلى بكتاب مثل هذا . لقد وضع الله القدير كل رجل في موضعه الذي يستحقه من الحياة، فالبعض قد قدر لهم أن يضعوا شارة الجنرال ، والبعض قدر لهم أن يخدموا ككاتم أسرار . والبعض يأمر والآخر يطيع ويخاف ولا يملك الشكوى . كل هذا قد نظم وفقا لقدرة كل إنسان البعض يصلح لشيء ما ، والبعض الآخر لشيء آخر وهذا ما قدره الله نفسه ولقد عملت في وظيفتي منذ ثلاثين عاما خلت حتى الآن وخلت خدمتي حتى الآن أيضا من المثالب، وكان سلوكي مستقيما ولم يوبخني أحـــد قط لإخلالي بالنظام يوما أما باعتباري مواطنا فإني أرى نفسي ـ وأنا أعي جيداً ما أقول ـ رجلا

له نقائصه ولكن له فضائله أيضا . (ورؤسائى) يحترمونى حتى «سعادته» راض عنى وأنا أعلم أنه راض عنى حتى لو لم يظهر علامات تقدير خاصة لى حتى الآن .

ولقد عشت حتى وخط الشيب رأسى دون أن اقترف خطايا خطيرة تثقل ضميرى . أما عن العثرات الصغيرة فمن ذا الذى يبرأ منها ؟ فكل شخص يتعثر يوما فى أشياء صغيرة — حتى أنت ياحبيبتى . ولكنى لم أتهم قط بجريمة أو بما يشين ، او خرجت يوماً على القانون او كدرت صفو السلام كلا لم يحدث هذا قط . بل لقد أتى وقت رشحت فيه لنيل وسام ولكن لماذا أذكر هذا كله وكان الأجدر بك أن تعرفيه منذ وقت طويل ، وكان يجب عليه أيضا — ذلك المؤلف — أن يعرف هذا أيضا ؟ . فإذا ما قرر إنسان أن يصف كل شىء كان عليه أيضاً أن يعرف كل شىء . إنى لم أتوقع شيئا ما مثل هذا منك يا عزيزتى ، منك أنت بالذات دون البشر أجمعين .

أيعنى هذا أن المرء لايستطيع ان يعيش فى سلام ، فى ركنه الصغير ، كما يحب أن يعيش ، وكما تعود ان يعيش فى هدوء : يخشى الله ولا يغضب مخلوقا ، ومن حقه أن ينتظر ان يدعه الآخرون وشأنه ، وان يهتموا بشئونهم ولا يتدخلوا فى شئونه أبدا :

أى حق لهم أن يتجسسوا على شئون المرء الخاصة ؟ . ماذا يعنيهم

إذا كان عند المرء صدارا جيداً أو لا ، إذا كان يملك ملابس داخلية أو لا يملك ، إذا كان عنده زوج من الأحذية أو ليس عنده ، وهل هذه الأحذية قد أصلحت بإتقان أو لا ، لماذا يجب أن يعرفوا ماذا يأكل المرء ؟ وماذا يشرب ؟ ، أو لماذا يتسخ المرء ؟ وماذا لو مشيت حافى القدمين عند الجزء المحطم من الرصيف كى أحافظ على نعلى ؟ . لماذا يعنى المؤلف بأن يخبر قارئه ، أن أخاه الإنسان يعانى أحيانا من ظروف قاسية حتى ليضطر أن يستغنى عن الشاى ، كما لو كان من واجب كل شخص أن يشرب الشاى ؟ هل أراقب أنا كل كسرة يتناولها جيرانى ، هل أفعل أنا هذا . ؟ هل يجرؤ مخلوق على القول إننى أفعل هذا ؟ اذن لماذا يفعل الآخرون ؟ . هذا ما أعنيه يافارفارا أليكسيفنا .

إن الرجل منا لينكب على عمله متحمسا — ويحترمه حتى رئيسه (وقولى ما شئت فهذا صحيح) . ثم فجأة يعترضه كاتب ما ويجعل سخرية منه أمام الناس . وطبيعى أنه قد يشترى لنفسه شيئاً جديداً من حين لآخر وصحيح أنه قد يشعر بالسعادة أحياناً حتى لا يغمض له جفن طيلة ليله ، وهذا هو مثلا الشعور الذى ملأنى عندما انتعلت أحذية جديدة . ويالها من لذة تشبه الخطيئة أن يرى المرء قدميه فى مثل هذا الجلد اللطيف ، . والحمد لله أن الكاتب قد وصف هذ كله كما يحدث بالضبط ، ومع هذا فالحق إننى لأدهش كيف يحب رئيسنا فيودور فيودوروفتش مثل هذه الكتب وكان من الواجب أن يسخط عليها ، فهو إذا سخط عليها فانما

يدافع عن شخصيته . ولكن من الحق أنه موظف صغير، وأنه يجب أن يصرخ فينا أحياناً مثل ذلك الموظف الذى يصفه الكتاب : ولكن لماذا يجب ألا يفعل؟ لماذا يجب أن يكف عن صراخه فى وجوهنا ولماذا يجب أن يكف عن أن يصلينا بغضبه ، إن السمك الصغير يجب أن يصطلى النار. صحيح أنه يفعل هذا إظهاراً لسلطته ، ولماذا يجب ألا يفعل ، من الواجب عليه أن يضع كلا منا فى موضعه وأن يبث فينا خوف الله ، فبيني وبينك يافارنكا نحن السمك الصغير لاقيمة لنا دون الخوف من الله . وكل منا لا يفكر إلا فى أن يظل اسمنا فى كشف الماهيات فحسب ، شغلنا الشاغل أن يظل اسمنا فيه . . لا أن نعمل . ومادامت هناك مراتب مختلفة وكل منها يعذب الآخرين وبطريقته الخاصة فإن اللهجة المستعملة تختلف طبقاً لاختلاف المراتب .. كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك — هكذا الحياة ياعزيزتى ، كل منا يجعل نفسه فى موضع أعلى من الآخرين ولابد من أن يشوى بعضنا البعض الآخر على النار ، ولولا هذا لانتهى العالم — ولكنى أعجب بعد هذا كله من أن يوافق فيودور فيودوروفتش على مثل هذه الوقاحة .

أى خير يخرج من كتابة مثل هذه الأشياء ؟ ومافائدتها؟ هل سيهدى إلى القارىء معطفاً جديدا للعمل ، أو زوجا من الأحذية ؟ لن يحدث شىء من هذا القبيل يا فارنيكا . أنه سيقرؤها جميعاً ثم يطلب منها المزيد والإنسان حريص على إخفاء نقائصه ، حريص جدا حتى لينطوى على

نفسه خشية الأقاويل . . وكل كومة من التراب تصبح جبلا ، وقبل أن يدرك المرء توضع حياته العامة والخاصة جميعا عارية فى كتاب ثم تصبح موضع السخرية ، ويدور حولها النقاش . وكيف يستطيع المرء أن يظهر فى الشارع بعد ذلك وقد وصف كل شيء بدقة حتى ليعرفه الناس من مجرد مشيته !

ولعل الأمر ما كان يسوء إلى هذا الحد لو أن المؤلف قد تمالك وعيه قرب نهاية الكتاب ، ثم لطف الأمور قليلا بقوله ، وبعد أن وصف كيف استهزءوا به وسخروا منه — إنه كان رجلا طيباً فاضلا، وإنه لم يكن ليستحق أبدا أن يعامله زملاؤه معاملة كهذه ، وإنه كان يطيع رؤساءه (ومن المستحسن أن يعطى بعض الأمثلة هنا) ، وإنه لم يحمل ضغينة لأحد ، وآمن بالله ثم مات (إذا ما أصر المؤلف على موته) وناح عليه الأهل والأصدقاء .

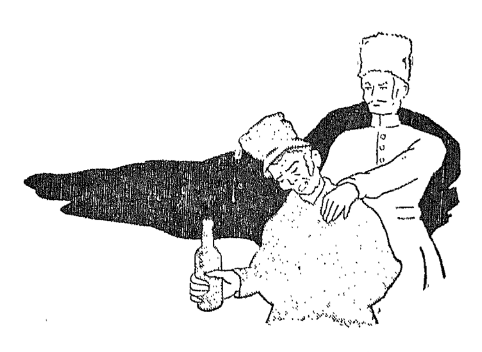
ومع هذا فسيكون من الأفضل ألا يدع المسكين يموت بل يدعه يسترد معطفه ، ويستدعيه سعادته، الذى يرقيه فى الدرجة ويرفع مرتبه بعد تحريات دقيقة عن مزاياه ، وبذلك تنتصر الفضيلة وتجازى الرذيلة فى شخص زملائه .

ذلك ما كنت أكتبه أنا ! إن المؤلف لم يفعل إلا أن وصف فترة تافهة ضئيلة من وجودنا اليومى التافه فحسب . .

كيف طاوعتك نفسك أن تبعثى إلى بمثل هذا الكتاب ياحبيبتى ؛ إنه كتاب مفسد يافارنكا . بجرد أنه كذب لأنه لا يمكن أن يوجد مثل هذا الكاتب الحكومى إننى أرى أنه يجب أن أرفع شكوى ضد هذا الكتاب يا فارنيكا .

خادمك المطيع

ماكار دوفشكين



٢٧ من يولية :

عزيزى ماكار :

إن الأشياء التى حدثت أخيرا ، وخطاباتك الأخيرة أيضاً ، قد سببت لى قلقاً عظيما ، وجعلتنى فى حيرة من أمرى حتى شرحت لى فيدورا كل شيء ، لماذا تستسلم لليأس وتتردى فى مثل هذه الهاوية ياماكار أليكسيفتش ؟ . إن أعذارك التى تتعلل بها لم تعد تقنعنى وكما ترى الآن كان يجب أن أقبل هذه الوظيفة المجزية ، فما حدث أخيراً قد أثار فزعى حقاً . . . .

تقول إن حبك لى دفعك إلى كتمان أشياء . ولقد شعرت دائماً أننى مدينة لك ، وإن كنت إعتقدت دائما أن ماتنفقه علي من نقود إنما هو من مدخراتك فى البنك ، فكيف بربك يكون شعورى عندما

أعلم أنك لم تكن ذامال قط ، وأنك كنت تسحب مرتبك مقدماً لأنك كنت ترثى لحالى فحسب ، وأنك بعت معطفك عندما كنت مريضة . . ماذا سأفعل ياصديقى المسكين ؟ .

كان يجب أن تكف عن هذا كله بعد مظاهر العطف الأول التى أغدقتها على بدافع من شفقتك وشعورك بالقربى ، وكان يجب ألا تبعثر أموالك على الكماليات . لست صديقاً حقيقياً ياماكار ، فلم تك صريحاً معى ، والآن وقد علمت أن آخر كوبك كان معك قد أنفقته فى شراء الملابس والحلوى وتذاكر المسرح والكتب وضروب التسلية المختلفة فإننى أدفع ثمن حماقتى غالياً (ألم أقبل أنا كل شىء دون ان أفكر فيما تحتاج اليه أنت) . وكل الأشياء التى رجوت أن تجلب بها السرور إلى قلبى قد جلبت إليه الحزن والندم الذى لاطائل وراءه .

لقد لاحظت انقباضك أخيرا ، وأقلقنى هذا ، ولكن ماحدث مثلا قد تجاوز أسوأ مخاوفى . ياإلهى ! كيف استطعت أن يفلت منك زمام نفسك إلى هذا الحد ياماكار أليكسيفتش ؟ ماذا سيقوله الناس ؟ .

إننى لا أستطيع أن أنكر أنك أنت — أنت الذى يحترمه الجميع لتواضعه واتزانه وطيبته ، قد ارتكبت أسوأ الرذائل — رذيلة لم يكن لك إليها ميل من قبل . وكيف ينبغى أن أشعر عندما أخبرتنى فيدورا أنهم عثروا عليك ثملا فى الشوارع فأحضرتك الشرطة إلى المنزل .

ما كدت أصدق أذنى بالرغم من أننى توقعت شيئا ما يخرج على المألوف مادمت لم تحضر لزيارتى طيلة أيام أربعة . هل فكرت يا ماكارفيما سيقول رؤساؤك لو علموا السبب الحقيقى لغيابك ! لقد كتبت إلى تقول : إن الجميع يسخرون منك ، وإنهم قد علموا بصداقتنا وإن جيرانك يذكرون اسمى هازئين . أستحلفك بالله يا ماكار أليكسيفتش ألا تلق إليهم بالا واعتن بإصلاح شأنك .

وتلك الحادثة التى حدثت منك مع الضباط تقلقنى أيضا ، ولقد وصلتنى بعض الشائعات عنها ، فأرجو أن تخبرنى بها .

ولقد كتبت أنك كنت تخشى أن تذكر لى الحقيقة كلها فتفقد صداقتى ، وأنك كنت يائسا إذ كنت لا تعرف كيف تستمر فى مساعدتى والإنفاق على علاجى حتى أظل خارج المستشفى ، وأنك قد اقترضت الكثير من النقود على قدر ما استطعت ، واضطررت إلى مشاجرات حادة . مع صاحبة الدار ، ولكنك لم تكن لتفعل شيئاً أسوأ من تكتمك عنى هذا كله ومهما يكن من أمر فإننى أعرف كل شىء الآن .

إن سر ترددك هو أنك حريص على ألا تشعرنى بأننى كنت سبب متاعبك ، ولكنك فى الواقع قد ضاعفت حزنى بمسلكك . إن هذا التصرف يحطم القلب يا ماكار . آه يا صديق . . إن سوء الحظ يعدى كالوباء ، ويجب أن يبتعد بعض الفقراء والتعساء عن بعضهم الآخر

فلقد جلبت عليك متاعب لم تكن لتعانيها من قبل فى وجودك المتواضع المنعزل إننى لا أحتمل التفكير فى هذا .

خبرنى بصراحة ماذا حدث لك بالضبط ، وكيف انحدرت إلى مثل هذا الدرك ، أخبرنى شيئا يبعث الطمأنينة فى قلبى لو أمكنك .

وليست الأنانية هى التى تدفعنى إلى أن أطلب منك هذا ، بل هى صداقتى لك التى لن يستطيع شىء أن ينتزعها من قلبى . وداعا ياصديق .. إننى متلهفة لاأصبر حتى يأتى ردك . لقد أخطأت ياماكار إذ ظننتنى على مثل ما ظننت .

المخلصة

ف . د



٢٨ من يولية .

طفلتى الغالية فارفارا اليكسيفنا

. . الآن ، وقد انتهى كل شيء وعادت حياتى إلى مجراها الطبيعى ، أستطيع أن أخبرك بهذا : يقلقك ما قد يظن الناس ، ولكنى أبادر فأؤكد لك أن شرفى أعز عندى من أى شيء آخر فى الوجود ، وعلى هذا أخبرك هنا عن نكباتى وأقرر أن رؤسائى لا يعلمون عنها شيئاً ، ولن يعلموا شيئاً ، وهكذا سيستمر احترامهم القديم لى كما كانت الحال من قبل ، شيء واحد يقلقنى فحسب: وهو مروجو الشائعات ، أما صاحبة الدار فلقد استحال صراخها إلى زمجرة بفضل روبلاتك العشرة التى دفعتها لأسدد متأخراتى . أما بالنسبة للآخرين فهم لا يثيرون أية مشكلات على الإطلاق ما دمت لا أحاول أن أستدين منهم المزيد .

وسأنهى إيضاحاتى بهذه الحقيقة أقررها ياحبيبتى : إن تقديرك لى أهم عندى من أى شيء آخر فى الوجود ، وإنه يعوضنى تماماً عن كل ما نزل بى من مصائب ، وشكراً لله أن نذر العاصفة الأولى قد مضت ،

وأنك لا تعتبريننى صديقاً خادعا وشخصاً أنانيا لأننى لم أطق أن أدعك تذهبين بعيداً وهكذا خدعتك بالرغم عما فى قلبى من حب لك يا ملاكى الصغير الحبيب .

وقد عدت إلى عملى بحماس مضاعف وقمت بكل ما هو مطلوب منى بكل امتياز ، ولم يقل بيفستانى إيفانوفتش كلمة واحدة ، عندما مررت به أمس ، ومن أخفى عنك ياحبيبتى أننى مثقل بالديون ، وأن رثاثة ثيابى تخزينى ، ولكن هذا لا يهم كثيراً ، وأرجو ألا تقلقى . أما هذه القطعة ذات الخمسين كوبكا التى أرسلتها فقد مست شغاف قلبى . إذن لقد وصل الأمر إلى هذا الحد ! لست أنا الأحمق العجوز الذى يساعدك ، بل أنت يا طفلتى اليتيمة بلا حماية، التى تقدمين إلى يد المعونة .

وقد كان جميلا من فيدورا أن تحصل على هذا المال ، ففى الوقت الحالى لا يوجد أدنى أمل فى الحصول عليه يا حبيبتى ، إذا ما تغيرت الحال يا عزيزتى فسأخبرك فورا بيد أن أقاويل الناس - هى ما يزعجك أكثر من أى شىء آخر .

وداعاً يا ملاكى . لا أستطيع أن أكتب فى تفصيل أكثر فعلى أن أسرع إلى المكتب ، ويجب أن أعوض إهمالى . سأكتب إليك هذا المساء عن الأشياء الأخرى التى حدثت وعن مشكلاتى مع الضباط .

صديقك الذى يحترمك ويحبك

ماكار .



٢٨ من يوليو

آه يافارنسكا ..

إنه أنت التي يجب أن تخجلي من نفسك الآن ولست أنا . وسيظل هذا الأمر يثقل ضميرك إلى الأبد ، فقد تركني خطابك الأخير في أشد حالات الاضطراب ، ولكني عندما بحثت في قلبي وجدت أنني كنت على حق تماماً . ولست أشير طبعاً إلى مجوني [وكفانا من هذا ياعزيزتي]

ولكنى أشير إلى حقيقة معينة ، تلك أننى مغرم بك ، وأنه ليس من الجنون قط أن أغرم بك . وأنت لا تعرفين شيئاً عن حبى ياحبيبتى . لو عرفت حقيقة لماذا لا أملك إلا أن أغرم بك ما ذكرت الأمور التى ذكرتها . وأنا على يقين أن عقلك فقط هو الذى يتحدث ، ولكنى على يقين من أن قلبك سيقول أشياء أخرى .

وإن شئت الحق ياحبيبتى فإنى لا أذكر ماذا حدث بينى وبين هؤلاء الضباط بالضبط ولا بد أن أقول ياعزيزتى إننى كنت أعانى ظروفا كئيبة فقد ظللت شهراً كاملا وأنا كالمعلق فى الهواء بخيط واه ، وكان ذلك موقفاً مزريا وتكتمت عنك وعن جيرانى ، ولكن ربة دارى أثارت ضجة كبيرة ، ولست أعبأ طبعاً ، فلتصرخ هذه الساحرة العجوز كما تشاء حتى تكتفى . ولكن أول كل شىء أنها أثارت فضيحة ، وأنها علمت بأمر خطاباتنا ، ويعلم الله كيف علمت ، وبدأت تقذف بالسباب والتهم حتى اضطررت أن أصم أذنى . ولسوء الحظ لم يصم الآخرون آذانهم ، بل على العكس أصاخوا سمعهم حتى لأحس بالخجل والخزى إلى الآن يا عزيزتى .

وهكذا يافارنكا كاد هذا السيل من النكبات يقضى على ، ولكن أقسى تلك النكبات عندى كان عندما أخبرتنى فيدورا أن شخصاً منحطا قد أتى إلى غرفتك فأهانك بما كان يضمره لك من نوايا خسيسة . .

وإنى لمقدر كم تألمت أنت ، فقد آلمنى هذا كثيرا ، وعندئذ فقدت أعصابى فاندفعت يافارنكا فى ثورة عارمة أبغى مسكن ذلك الشرير المنحط ، لم أكن أدرى ماذا أنا فاعل ، كل ما كان يعنينى أننى لا أتحمل أن يهينك مخلوق ياملاكى الصغير .

كنت حزينا ، وزاد من حزنى وثورتى أن الدنيا كانت تمطر والشوارع ممتلئة بالوحل حتى لتزل الاقدام . . كل شىء حزين كئيب . وكنت على وشك أن أعدل عن الذهاب ، وأعود أدراجى — ولكن عندئذ بدأ سقوطى . . فقد تصادف أن قابلت يميليا — أعنى يميليان اليتش . وقد كان ناسخا معنا حتى فصل من وظيفته ، ولست أدرى بالضبط ماذا يفعل الآن ، وهكذا سرنا معاً . . وعندئذ . . ولكن أى متمة تجدينها يا فارنكا فى قراءة قصة نكبات صديقك وعثراته ؟ .

وفى مساء اليوم الثالث ، دفعنى يميليا إلى الانتقام من ذلك الضابط وعلمت عنوان مسكنه من البواب . وعلى ذكر هذا الضابط ياعزيزتى أقول إننى قد لاحظت منذ أمد طويل أن بأخلاق هذا الضابط سفاهة فقد راقبته كثيرا عندما كان يسكن فى منزلنا . وإنى لأحس الآن بقلة فطنتى ، فالحق أصرح به إننى كنت مخمورا عندما اقتحمت غرفتـــه ، ولست أتذكر شيئا يافارنكا اللهم إلا أن الغرفة كانت ممتلئة بالضباط — أو لعل بصرى زاغ فرأيتها ممتلئة بالضباط : لست أدرى ويعلم الله

ولست أستطيع أن أذكر ماذا قلت بالضبط ، ولكنني أعرف أنني قلت شيئاً كثيرا دفعني إليه حنق ، فطردوني خارج الغرفة ، بل لقد ألقوا بي على الدرج ، أعني أنهم لم يرموني رمياً على الدرج . ولكنهم طردوني خارج المنزل ، ولقد بلغك كيف عدت إلى منزلي ، وهذا هو كل ما حدث .

وطبيعي أن كرامتي قد أهينت ، ولكن لا يدرى أحد بهذا ، أعني أنه ما من غريب يدرى بها . ومادمت أنت الشخص الوحيد الذي يعرف فكأن الأمر لم يحدث قط . أليس الأمر كذلك يافارنكا ؟ إن ما أعرفه حق المعرفة أنه في العام الماضي أهان « اكسنتي أوزيبوفتش » كرامة « بيوتر بتروفتش » في المكتب ولكن حدث هذا سرا ، فقد استدعاه إلى حجرة البواب ، وقد رأيت كل ذلك خلال صدع في الباب — ثم كال له الإهانات — ولكن بطريقة مهذبة — ودون أن يدرى أحد . أما عني فإني لم أذكر شيئا عن ذلك لأي مخلوق ، ثم استمرت علاقتهما بعد ذلك كأنما لم يحدث شيء . وكان بيوتر بتروفتش محترما حقاً ، ولم يتحدث لمخلوق بما حدث ، وبعد هذا تصالحا وتبادلا التحيات .

أما أنا فلن أجادل ياعزيزتي لأنني لا أجرؤ على ذلك ، والحق أنني قد أهنت . وأسوأ مافي الأمر أنني احتقرت نفسي . ولا بد أنه

هـــذا أمر قدرته السماء ، ومن يستطيع ان يهرب من يد القدر .
وهكذا تعلمين الآن قصة نكباتى وعثراتى كاملة يافارنكا . ولا أظنها
تستحق القراءة . اما أنا فلست بخير ، فقد فقدت كل احترامى لنفسى .

واسمحى لى فى النهاية ان اؤكد لك تقديرى وحبى وإخلاصى وأن أظل
ياعزيزتى فارفارا اليكسيفنا .

خادمك المطيع

ماكاردوفشكين



٢٩ من يوليو

صديقي العزيز ماكار أليكسيفتش

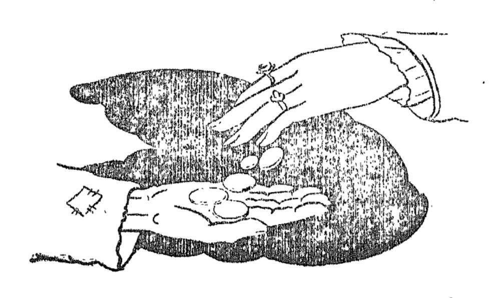
قرأت خطابيك فتملكني اضطراب شديد . ياصديقى المسكين ، إما أنك أخفيت عنى جانباً من همومك . . وإما أنك . . . فالحق ياماكار أليكسيفتش أنك تعانى من مشكلة مالم تخبرنى عنها كما فهمت من خطاباتك .

أرجوك أن تأتى لزيارتنا اليوم ولا تتأخر ، وأفضل من هذا أن تأتى وتتناول غداءك معنا . وأنت لم تخبرنى حتى كيف تدبر حياتك يوما بعد يوم ، وكيف تمضى بك الأمور مع ربة الدار ، فإنه ليبدو لى أنك تتعمد أن تتكتم عنى هذه الأمور .

وداعاً ياصديق . وابذل جهدك كى تحضر إلينا ، ولعله من الأفضل أن تتناول غداءك معنا دائما ، ففيدورا طاهية ممتازة ووداعا .

المخلصة

فارفارا دوبروسيولوفا



الأول من أغسطس

فارفارا ياحياتى

أراك سعيدة يا أعز مخلوق لدى لأن الله قد أتاح لى فرصة لرد الجميل وأنا على يقين من ذلك لأنى واثق من طيبة قلبك . ولكنى أرجوك ألا توبخينى لأنى تنكرت لشيخوختى [ولا أقصد من هذا إهانتك طبعاً] . فإذا أصررت ، اعترفت بأنها كانت خطيئة ، ولكن اشد مايؤلمنى أن أسمع هذا منك أنت بالذات ياصديقتى الصغيرة ، ولا يغضبك منى أن أقول مثل هذه الأشياء فإن قلبى تملؤه الحسرة . والفقراء يافتاتى فى ريبة دائماً . . وأظنهم ولدوا هكذا ، فلطالما شعرت بهذا من قبل .

إن الفقير رجل مستريب دائما ، إنه دائمـا فى حذر من كل شىء . دائما يتساءل ماذا يقول الناس عنه ؟ لربما يقولون : «أى حطام مسكين!

ترى فيم يفكر الآن ، وعلى أية صورة تعسة يبدو من هـذا الجانب أو ذاك ؟ وكما يعلم الجميع يافارنكا لايستحق الرجل الفقير شروى نقير ولا يمكن أن يحترمه أحد ، ومهما قال الكتاب فسيظل كل شيء على ماهو عليه ، ولماذا ؟ .. لأنهم يتوقعون أن يمضى الرجل الفقير وقد أظهر للناس كل ما بطن من أمره .. إنهم يريدون ألا يكون له ما يخفيه أو مايقدسه.

أما عن الاعتزاز بالنفس — فهذا مالم يخلق له قط : بالأمس فقط أخبرني يميليا أنه كان يعمل عملا إضافيا . ولكنه كان يخضع لتفتيش رسمى عن كل عشرة كوبكات يتقاضاها .

لقد ظنوا أنهم يتصدقون بأموالهم ، ولكن الواقع أنهـم كانوا يدفعون ثمناً لتمتعهم بمنظر رجل فقير ، والإحسان يوزع توزيعاً غريباً فى هـذه الأيام ، بل من يدرى ؟ لعله كان كذلك دائماً . فهم إما أنهم لايعرفون كيف يتصدقون أو أنهم يعرفون هذا جيداً . على كل فهكذا هى الحال ياعزيزتى وربما لانعرف إلا القليل عن الأشياء الأخرى ، ولكننا نعرف الكثير عن الإحسان . ولماذا ! بحكم التجربة : فإنى واثق من أننى سأرى سيداً يمضى فى طريقه إلى قهـوته ، وهو يقول لنفسه : إنى لأتساءل ماذا سيتناول هذا الكاتب الرث من غذاء اليوم ؟ سأتناول أنا لحماً مشوياً ، وأغلب الظن أن هذا البائس سيتناول عصيدة دون زبد ! .

ماذا يعنيه من غذائى ؟ هناك سادة فعلا يفكرون بهـــذه الطريقة يافارنكا إنهم كتاب متسكعون يراقبون المرء دائماً ليعرفوا : هل يمشى وجلا أو لا : أو هل هذا الكاتب الفقير فى هذه المصلحة أو تلك يمشى فى حذاء ممزق تطل منه أصابعه ؟ أو يطل مرفقه من سترته ؟ - ثم يمضى بعدها إلى منزله ليسجل هذا كله ، ثم يلقى بتفاهاته إلى المطبعة .

بالله ياسيدى العزيز ماذا يعنيك إذا ما أطل مرفق من سترتى الممزقة أو لم يطل ؛ لتغفرى لى فظاظتى يافارنكا ، ولكن الحق أن الرجل الفقير يشعر بالخجل كما تشعر به الخادمات. وأنت لا تتجردين من ثيابك أمام الغرباء — ولتغفرى لى وقاحتى — وهكذا لايحب الرجل الفقير أن يتجسس أى شخص على عوراته ، أو على شئونه العائلية . وهـذه هى المشكلة بالضبط . هذا هو بالضبط ماجعلنى أتألم غاية الألم لأن أعدائى لطخوا سمعتى وأهدروا احترامى لنفسى .

وفى المكتب أيضاً سلكت كما يسلك أى عصفور حقير أجرب.... إننى أوشك أن احترق خجلا إذ أفكر فى هذا. كيف أمنع نفسى من الخجل حينما أرى أن مرفقى يطل من أكمام سترتى وأن أزرار سترتى كانت تتراقص بخيوطها مثل الأجراس ؟ ويشاء حظى العاثر أن يكون هذا اليوم أسوأ من أى يوم آخر وهذا وحده يكفى لتثبيط همة أى إنسان . بل إن ستيفان كارلوفتش نفسه لاحظ هذا أيضاً . فبينما كنا نتحدث فى أمور تتعلق بالعمل فاجأنى بقوله :

— عزيزى المسكين ماكار أليكسيفتش . . .

ولم يكمل .

ولكننى تكهنت بما يريد أن يقول ، وغمرنى الخجل حتى كادت صلعتى تشتعل . طبيعى أن الأمر تافه ، ولكنه مع هـذا مؤلم أيضاً . أيكون قد تناهى إلى سمعهم شىء ؟ حاشا لله أن يحدث هذا . وأصرح لك ياعزيزتى أننى أشك فى رجل معين بالذات . والكتاب لا يعنيهم شىء فهؤلاء الأشرار على استعداد لأن يبيعوا حياتك الشخصية مقابل كوبك واحد . فلا شىء مقدس لديهم .

إنى لعلى يقين من الشخص الذى يكمن وراء هذا كله - إنه «راتازيف» ولا أحد غيره . فهو على علاقة بشخص ما فى وزارتنا ، ولعله قد روى له كل شىء بعد أن يضيف إليه مايشاء من اختلافات منمقة . أو لعله قد تحدث فى وزارته هو ، ثم تسرب حديثه حتى وصل إلى وزارتنـا . وجيرانى جميعهم يعرفون كل شىء بل إننى رأيتهم يشيرون ذات مرة إلى نافذتك ، وعندما كنت أتناول غذائى معك أطلوا برءوسهم جميعـا من النوافذ ، وقالت ربة الدار أن الشيطان العجوز قد أغرى فتاة صغيرة ، ونعتتك نعتا بذيئاً . ولكن ما أهمية هـذا كله إلى جانب مايقتويه «راتازيف» الشرير من أن يكتب هذا كله فى كتاب ويصفنا فى سخرية لاذعة . ؟ لقد قال لى ما معناه هذا ، وحذرنى كثيرون من الأخيار .

لقد أعيتني الحيلة ياحبيبتي فماذا يجب أن أفعل . يبدو لي ياملاكي أن الله يبغي عقابنا .

لقد وعدتني أن ترسلي كتابا أقتل به وقتي، ولكن لاتهتمي بالكتاب. وما قيمة الكتاب آخر الأمر ؟ مجرد مجموعة من الحماقات . وما قيمة العقبة ؟ تفاهات كتبت ليتسلى بها المتسكعون ! ألست أعرف هذا بحكم خبرتي الطويلة وهم إذا ما تحدثوا عن شكسبير قالوا :

— أما في الأدب فاقرئي شكسبير . .

ولكن كوني واثقة ياىنتاتي أنه لغو وتفاهة مثل الأدب كله . . وكله حماقات وافتراء . . ولايصلح إلا للهجاء فحسب .

المخلص

ماكار دوفشكين



٢ من أغسطس :

عزيزى ماكار أليكسيفتش

بربك لا يقلقك شيء ، فبعون الله ستتحسن الأمور . وقد وفقت « فيدورا » إلى عمل كثير لى ولها ، وبدأنا فيه بحماس علنا نصلح أمورنا . « وفيدورا » تشك أن يكون لمشكلاتى الأخيرة صلة ما بآنا فيدوروفنا ، ولكن ماذا يهمنى من هذا ؟ إننى اليوم مبتهجة على غير ما تعودت . ولقد علمت أنك تنوى الاقتراض مرة أخرى . بربك لاتفعل فستواجه مشكلات لا تنتهى إذا حان موعد السداد . بربك لا تلق بالا إلى ربة الدار واذكر انك اقرب أصدقائنا وتعال لزيارتنا على قدر ما تستطيع . أما عن بقية الأعداء والحساد فأنا واثقة من أن مخاوفك وهمية يا ماكار . لقد أخبرتك أن طريقتك فى الكتابة غـــير منتظمة ولازالت كذلك . وداعا حتى نلتقى . وإنى لفى انتظار زيارة منك قريباً .

المخلصة

ف . د .



٣ من أغسطس

ملاكى الصغير

أبادر فأزف إليك يا حياتى بأن الغمة إلى زوال ، ولكن . . كيف تطلبين منى ألا أقترض ، . إن هذا لمستحيل يا ملاكى الصغير . أنا الآن مفلس ، ماذا إذن لو حدث لك شيء ، لا قدر الله ، إنك رقيقة الصحة جدا يا فتاتى . ولهذا كان لا مفر من الاقتراض .

وأواصل الحديث فأقول :

دعينى أخبرك أولا يافارفارا أننى أجاور فى مكتبى زميلا يدعى إميليان إيفانوفتش — وليس هذا هو إمليان الذى سبق أن حدثتك عنه فإميليان هذا موظف صغير ، ولعل كلينا أقدم موظفى الديوان . وهو رجل طيب القلب ، محب للآخرين ، لا يفتح فاه أبداً حتى ليبدو كخنزير برى . ومع هذا فهو رجل كفء فى عمله ، وخطه جميل حقا ،

وقصارى القول إنه رجل جدير بالاحترام . والحق أن الصداقة لم تتوطد بيننا قط ، ولم يكن الأمر يعدو مجرد تبادل التحية ، فطبيعى أنى أسأله كلما احتجت إلى مبراة أشذب بها قلمى :

— هل تتكرم بإقراضى مبراتك يا إميليان إيفانوفتش ؟

ولم يزد الأمر عن هذا قط . ولكنه اليوم باغتنى بقوله .

— بربك لا تجهد نفسك فى الفكر ياما كار . .

وشعرت أن الرجل يضمر لى خيرا ، فأخبرته بكل شىء ، لا .. ليس كل شىء ، إذ لم تواتنى الشجاعة أن أخبره بجميع أحوالى ، وإنما اقتصرت على أن أفضى إليه بأن أحوالى قد تأزمت .. وأنى قد مررت بظروف قاسية ، وقال لى إميليان :

— « إذن لماذا لا تقترض بعض المال من بيوتر بتروفتش ، أيها الصديق العزيز ؟ إنه يقرض المال بالربا ، ولطالما اقترضت منه أنا نفسى بفائدة معقولة لا إجحاف فيها .

والحق يافارنكا إن قلبى كاد يقفز من صدرى إذ سمعت هذا ، وقلت لنفسى : لعل الله يوحى إلى بيوتر بتروفتش ، فيقنعه بإقراضى هذه النقود ، فلقد كنت أحسب حساب ربة الدار ، وكيف أدفع لها الإيجار وأقدم لك شيئاً من المعونة ، ثم أشترى أنا ما أحتاج ،

وأنت تعلمين المنظر الذرى الذى أبدو فيه حتى لأ كاد أموت من البرد. وأنا فى مثل هذه الثياب بالإضافة إلى السخرية التى يعذبنى بها رفقاء السوء — فليغفر الله لهم .

وأحياناً أيضاً يمر سعادته ليتفقد المكاتب . فكيف يكون الحال لو أنه لاحظ رثاثة ملبسى ، وليرحمنى الله إذا حدث ذلك.

وسعادته يعنيه كثيرا مظهر الموظفين. طبيعى أنه قد يمر ثم لا يقول شيئا ، ولكنى سأموت من العار ، لهذا كله وضعت عارى فى جيوبى الممزقة ، ومضيت إلى بيوتر بتروفتش وأنا أشبه ما يكون بالموتى وإن كان قلبى يراوده بصيص من الأمل ، وتخيلى يا فارنكا أن ينتهى هذا كله إلى لا شيء ، لا شيء على الإطلاق . كان بيوتر بتروفتش منهمكا فى الحديث مع فيدوسى إيفانوفتش عند ما تسللت إلى جانبه ، وجذبت كم سترته كما لو كنت أقول :

— بيوتر بتروفتش — إننى هنا .

وعنـد ما التفت إلى شرحت له أن كل أحتاج لا يعـدو ثلاثين روبلا . ويبدو أنه لم يفهم مرادى أول الأمر ، وعند ما شرحت له ما أريد ضحك ملء شدقيه ، وكان هذا كل رده . وبدأت أشرح له مقصدى مرة أخرى حتى قال :

— أى ضمان لديك . . ؟

ثم انهمك فى أوراقه ، وبدا كأنما قد نسى كل شىء عنى . وأثارنى هذا قليلا فأجبت.

— كلا يا بيوتر بتروفتش — ليس عندى ضمان ، ولكننى سأعيد إليك نقودك بمجرد حصولى على مرتبى ، سأردها إليك بالتأكيد — ثق أننى سأردها لك .

وفى هذه اللحظة دعاه داع ، فوقفت أنتظر ، ولكنه عند ما عاد بدأ يشذب ريشته ، وكأنه لا يحس لى وجودا . ، وبدأت محاولتى مرة أخرى .

— بيوتر بتروفتش . ألا يمكن أن تدبر الأمر بطريقة ما ؟ ولكنه لم يبد عليه أنه سمعنى . وطال وقوفى حتى قررت أخيرا أن أقوم بمحاولة أخيرة ، فجذبت كم سترته مرة أخرى . وهل تظنين أنه نطق ولو بكلمة واحدة ؟ . . كلا . . لا شىء من هذا القبيل ، انتهى من تشذيب ريشته ثم انصرف إلى الكتابة ، وهكذا انصرفت انا .

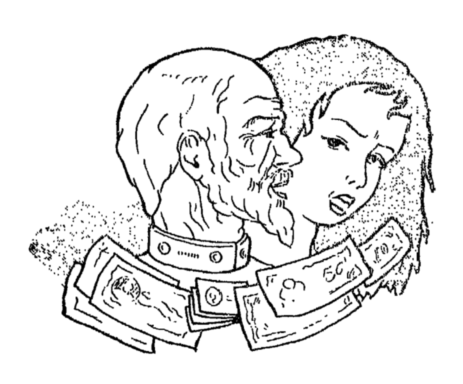
لعلهم جميعا محترمون — هؤلاء القوم — ولكنهم متكبرون . نعم بهم كبرياء شديدة وفى معزل عنا يافارنكا . ولكن لماذا أكتب إليك هذا كله ؟ لقد حدث أن إيمليان إيفانوفتش ضحك كما فعل بيوتر بتروفتش وهز رأسه آسفا عند ما علم ، ولكن الرجل الطيب

مع هذا شجعنى ووعد أن يوصى بى صديقا موظفاً صغيراً يسكن شارع فيبروجسكايا ويقرض المال بالربا . وإيمليان إيفانوفتش يؤكد أنه واثق أنه سيقرضنى وسأذهب إليه غدا فما رأيك ؟

عسى الله أن يوفقنى فى الحصول على النقود ، فربة الدار ستطردنى من منزلها وتمنع عنى الغـــذاء ، ونعلى قد بليتا وافتقرتا أيضا إلى الأزرار . . . وأى شىء إلا أفتقر إليه ؛ وماذا يحدث لو أن أحدرؤسائى حانت منه نظرة إلى منظرى المزرى .

فارنكا . . يبدو أن متاعبنا لانهاية لها . . لانهاية لها على الإطلاق .

ماكار . .



٤ من أغسطس

صديق العطوف ماكار

بربك اقترض المال بأسرع ماتستطيع. أرجوك أن تفعل هذا .. . وما كنت لأطلب معونتك فى مثل هذه الظروف التى تعانيها ، ولكن لو تعلم أى موقف نحن فيه الآن ! . . إننا لانستطيع أن نستقر فى هذا المسكن أكثر من ذلك ، فلقد عانيت الكثير من المشكلات ، ولا أستطيع أن أصف لك مدى اضطرابى .

فنى هذا الصباح اقتحم غرفتى رجل متقدم فى السن ، بل رجل عجوز تقريبا يرتدى الكثير من النياشين . وتملكتنى دهشة ، ولم أستطع أن أتخيل ماذا يبغى . وكانت فيدورا فى الخارج لشراء حاجياتنا

السوق . وسألنى العجوز كيف أعيش ، ودون أن أرد على أسئلته صرح لى بأنه خال ذلك النشابط ، وأنه ثائر على ابن أخته ، وعلى سلوكه معى الذى أثار حديث المنزل كله عنا ، ثم قال إن ابن أخته مجرد شاب مدلل لا يصلح لعمل ، وأنه مستعد — أى الخال — أن يمنحنى حمايته . ثم نصحنى أن أتجاهل الشبان ، وأضاف أنه يعطف على كأب ، وأن مشاعره أبوية فحسب ، وأنه مستعد ان يمنحنى معونته .

ووقفت خجلى لا أعرف ماذا أقول ، وإن كنت لم أسرع بشكره .

ثم اختطف يدى على الرغم منى وداعب وجنتى ، وهو يطرى جمالى ، ويعبر عن إعجابه بغازتى (ويعلم الله لماذا) ثم حاول أخيرا أن يقبلنى ، وهو يقول إنه ليس أكثر من رجل عجوز (وأى عجوز قذر هو !) .

وفى هذه اللحظة دخلت فيدورا ، فاضطرب قليلا ثم أكد لى أنه يحترمنى من أجل تواضعى وتعقلى ، ثم تمنى لو لم أعامله كرجل غريب ، ثم انتحى بفيدورا جانبا ، وحاول أن يعطيها شيئا من المال متعللا بمعاذير غريبة .

ومن الطبيعى أن ترفض فيدورا ، فاضطر آخر الأمر إلى الانصراف ولكنه أخذ يكرر وعوده ويعلن أنه سيأتى لزيارتى مرة أخرى ، وسيحضر لى قرطين أحلى بهما أذنى . (ولكنه كان يبدو فى ضيق) ،

ثم نصحنى أيضاً بأن أنتقل إلى مسكن أفضل ينتقيه هو ، وان يكلفنى شيئاً . ثم كرر إعجابه الكبير بي لأننى فتاة عاقلة شريفة وحذرنى مرة أخرى من الشباب الفاسدين . واعترف أخيراً بأنه يعرف آنا فيدورفنا وأنها طلبت منه أن يخبرنى أنها ستأتى لزيارتى بنفسها .

وفى هذه اللحظة أدركت الحقيقة كلها ، ولا أستطيع أن أخبرك كيف كان شعورى ؛ فقد كانت هذه المرة الأولى التى أجد نفسى فيها فى مثل هذا الموقف . . وفقدت أعصابى وصرحت له برأيي فيه ، وساعدتنى فيدورا حتى طردناه ! إننا واثقتان أن هذا من مكايد آنا فيدورفنا وإلا فكيف يمكن أن يعلم عنا شيئا إلا عن طريقها .

أتوسل إليك الآن يا ماكار ألا تتخلى عنى فى موقف كهذا ، وأرجوك أن تقترض بعض النقود ، لأنه من الواجب علينا أن نرحل عن هذا المكان ، وفيدورا من رأيي أيضا . إننا فى حاجة إلى خمسة وعشرين روبلا على الأقل ، وثق أننى سأرد اليك هذا المبلغ ، سأعمل حتى أتكسبها ، وستجد فيدورا مزيدا من العمل لى .

وعلى هذا فأرجوك ان تقترض النقود مهما بلغت فوائدها ، وسأعيدها كلها . . ولكن ساعدنى الآن . لشد ما يؤلمنى أن أضاعف همومك على حين أن أحوالك نفسها سيئة ، ولكنك أملى الوحيد . وداعاً ياماكار . أذكرنى وليوفقك الله كى تبذل أقصى جهدك .

ف . د



٤ من أغسطس

حبيبتي الغالية فارفارا

كم هزتني هذه الضربات المباغتة ! حتى لتئن روحي من هـــذه النـكبات . ولماذا تمتص قواك وحياتك ياملاكي هذه الحفنة من المنافقين وعجائز الأشرار ؟ ؛ وبسببهم سأنحدر إلى قبري . أقسم لك أني سأفعل ، ولـكني أوثر الموت على ألا أجد لك النقود التي تطلبين . غير أني لو فعلت فسيكون في هذا قضاء أكيد على حيـــاتي أيضاً إذ ستمضين عني كما يهجر الطائر عشه إذ احط عليه بوم الشؤم، ولـكن كيف تستطيعين أن تفعلي هذا بي يافارنكا . . كيف ؟ إنك لتتألمين وتتعذبين ياصغيرتي ، ولـكن مع هـذا تتعمدين ايذائي فتؤكدي لي بمرارة أنك ستعيدين النقود ، ومعنى هذا أنك ستحطمين قواك النحيلة كي تفي بفوائد

الديون فى موعدها . فكرى جيداً يافارنكا قبل أن تقولى مثل هذه الأشياء . لماذا تشقين منكبة على الحياكة تملأ الهموم رأسك . وتفسدين عينيك الجميلتين وتحطمين صحتك ؟ آه يارفارنيكا ! إننى اعلم أننى عجوز لاأصلح لشىء ، ولكنى سأجبر نفسى على أن تصلح لشىء ، ولن يعوقنى شىء ، سأحصل على عمل إضافى — سأنسخ الأوراق للكتاب ، سأذهب إليهم بنفسى وأتوسل إليهم أن يعطونى عملا ما ولا شك أنهم فى حاجة إلى شخص يستطيع أن ينسخ جيدا . إننى واثق أنهم فى حاجة إلى مثل هذا الشخص ، ولكنى لن أسمح لك إطلاقا ان تعملى وترهقى نفسك حتى تسقطى صريعة المرض .. لن اسمح لك أن تنفذى نواياك المهلكة وثقى أنى سأقترض المال بأية طريقة ياملاكى ! إنى أوثر الموت على الفشل . تقولين إنه ينبغى ألا أخشى الفوائد الباهظة لا قلق ياعزيزتى : فلست أخشى شيئاً الآن وسأقترض أربعين روبلا فهذا ليس بالكثير ، أليس كذلك أترينهم يثقون فى فيقرضونى أربعين روبلا ؟ وترى هل سيأخذون بكلمتى فحسب ؟ أترانى قادرا على أن أوحى بالثقة لأول وهلة ؟ أعنى هل أول نظرة إلى وجهى تترك أثرا طيباً ، حاولى ان تستحضرى ياحبيبتى أمام ناظريك شخصيتى ووجهى ثم أخبرينى ، هل أستطيع أن أوحى بهذا كله ؟ وما رأيك فى هذا كله ؟ إننى ثائر الأعصاب الآن فالحق أن الأمر كله مؤلم .

وإذا ما اقترضنا الأربعين روبلا هذه فسأخصص لك منها خمسة وعشرين يافارنكا ، ثم سأعطى اثنتين لربة الدار ، والباقى أقضى به .

حاجاتى . وطبيعى أننى مدين لربة الدار بأكثر من هذا ولـكن قدرى يافارنيكا ماأحتاج وسترين معى أنى حقاً لاأستطيع أنأعطيها أكثر من هذا ولا داعى لأن أذكر لك ماأحتاج إليه وإن يكن روبل من الفضة يكفى شراء زوج جديد من الأحذية فإننى لأخشى ألا يحملنى حذائى إلى المكتب حتى غد .

وطبيعى أننى أرحب برباط للعنق فرباطى الحالى قد عمر عاماً ولـكن لاداعى للاهتمام به مادمت قد وعدت بعمل رباط عنق من ثوب قديم عندك ، وهكذا سيكون عندى زوج جديد من الأحذيه ورباط للعنق ولـكن ماذا سنفعل بخصوص الأزرار ياصديقتى الصغيرة ؟ ولعلك توافقين معى يا فارنيكا على أننى لاأستطيع أن أستغنى عن الأزرار وقد ضاع كل مافى سترتى الحالية منها . وإننى أرتجف لمجرد التفكير فى أن سعادته قد يلاحظ مثل هذه الرثاثة ثم يقول ...

أما ما سيقوله فلن أعرفه أبدا ياعزيزتى ، سأكون ميتاً قبل أن أسمعه سأسقط ميتاً فى مكانى خجلا ، وسيتبقى بعد هذا ثلاثة روبلات لنفقات حياتى ولشراء نصف رطل من الطباق ، فلست بمستطيع ياصغيرتى أن اعيش دونه ، وها قد انقضت أيام تسعة لم أدخن فيها غليونى ، وقد كان بوسعى أن أشتريه ولا أخبرك بشىء عنه ، ولـكننى كنت خليقا بأن أخجل إذا أتيت عملا مثل هذا ، وكفى أنك فى مثل هذه الحال من اليأس

على حين أنغمس أنا فى ملاذى بيد أنى أكتب هذا كله يافارنيكا حتى أخفف من عذاب ضميرى . ويجب أن أخبرك ياعزيزتى صراحة أنى أقاسى الآن أسوأ ظروف مرت فى حياتى :

فصاحبة الدار لاتكاد تطيق رؤيتى ولاتكن لى أى احترام وهناك الكثير الذى أحتاج على حين تثقلنى الديون ، أما عن كتبة الوزارة فقد كانوا دائما لايطاقون أما الآن فإنهم أسوأ حالا . هذا مع حرصى على إخفاء كل شىء عن الناس جميعاً بل إننى أحاول أن أخفى نفسى ، وأسعى جهدى للتسلل خلسة فى الدخول والخروج دون أن يلحظنى أحد وليس عندى من الشجاعة ما أتكلم به مع أحد اللهم إلا أنت .

ولكن .. ماذا لو أخفقت فى هذا القرض ؟ ولكن كلا . . من الأفضل يافارنيكا ألا تفكرى فى هذا ، فلماذا نعذب أنفسنا بمثل هذه الأفكار ؟ إننى أقول يجب ألا تجزعى ولكن لو حدث هذا لاقدر الله فماذا تكون حالى ؟ صحيح أنك ستظلين قريبة منى ، ولن تقدرى على الانتقال إلى مسكن آخر ولكن كيف سأجرؤ أنا على العودة إلى المنزل فى مثل هذه الحال ؟ سأكون ضائعاً ، محطماً .

كان من الواجب أن أحلق لحيتى بدلا من الإطالة فى الحديث فلعل حلاقتها أدعى لأن أبدو فى مظهر أكثر احتراماً ، وكما تعلمين أن الثقة لاتمنح إلا لذوى المظهر الحسن .. ولكن ليساعدنى الله سأتلو صلواتى ثم أمضى فى طريق .

م . دفشكين



٥ من أغسطس

عزيزى المحترم ماكار أليكسفتش

لاتدع اليأس يتطرق إلى نفسك

بربك ، فماذا سيكون مصيرنا لو فعلت . .

كفانا مانحن فيه من متاعب .

هذه ثلاثون كوبكا من الفضة أبعث بها إليك ، واعذرنى إذا لم أستطع أن أرسل أكثر منها ، ولكن علها تكفى لتصلح بها من أمرك حتى غدا ، أما أنا وفيدورا فلا نكاد نملك شيئاً ، ولست أدرى ماذا نحن صانعان غداً ؟

إنه لأمر محزن ياماكار ولكن بربك لاتحزن ، صحيح أنك فشلت

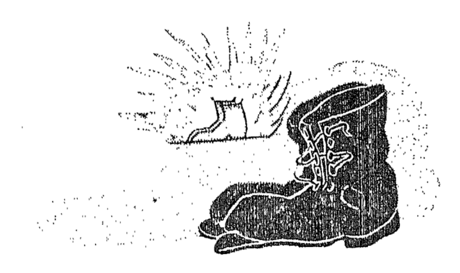
ولكنك على الأقل فعلت كل ما فى وسعك . فيدوراترى أنه من الأوفق أن نستمر فى إقامتنا هنا ، وأنه حتى لو انتقلنا إلى مسكن آخر ففى استطاعتهم أن يستدلوا علينا إذا شاءوا. ولكنى لازلت أرى أنه لامناص من انتقالنا وقد كنت أود أن أطيل الكتابة لولا أنى منحرفة المزاج .

يالك من شخصية غريبة حقاً ياماكار اليكسفتش، إنك تكترث كثيراً لكل شىء وسيجعلك هـذا دائما أتعس الناس . وإنى لأقرأ خطاباتك بعناية كبيرة وأستطيع أن أستشف منها أنه ليعنيك أمرى أكثر مما تعنى بنفسك . والناس جميعاً ترى أنك طيب القلب، وكم كنت أود أن أعتقد مثلهم . ولكن اسمح لى ياماكار أن أقدم لك نصيحة ودية : إنى لك لشاكرة معترفة بجميلك على كل ماصنعت من أجلى وإنى لأحس بهـذا إحساسا عميقا ، تخيل إذن كيف يكون شعورى إذ أرى أنه بعد كل هذه النكبات .. التى كنت أنا السبب المباشر فيها . . تتمادى فى مشاركتى فى أفراحى وأتراحى وأنك تعيش من أجل العناية بى فحسب . ولا غرو إذن إذا غدوت إنسانا بائساً مادمت تملأ قلبك بآلام الناس . وكم راعنى منظرك عندما أقبلت لزيارتى بعد انتهائك من عملك اليوم. لشد ما كنت وجلا شاحب الوجه ، كنت شبح نفسك فحسب ، ولماذا ..؟ لأنك كنت تخشى أن تصرح لى بإخفاقك فتصدمنى ، وأى عبء انزاح عن كاهلك عندما رأيت أنى على استعداد للضحك . ألا ، فلتكف عن القلق ياماكار . . ولينشرح صدرك . إنى اتوسل اليك أن تتعقل فستنتهى

الأمور على خير مايرام... وسترى ، وإلا فستكون حياتك قاسية مادمت تحزن وتتألم من أجل الآخرين كما تفعل الآن .

إلى اللقاء ياصديق ... وأرجو مرة أخرى ألا تشغل بالك بهموى .. أرجوك . . .

ف . د



١٠ من اغسطس

فارنيكا . . . يافتاتى الوديعة

هذا شيء جميل حقاً ياملاكى ... جميل حقاً أن تقولى إنك لم تأبهى كثيراً لفشلى فى اقتراض النقود هذا حسن جداً لأنه يطمئننى حتى ليغمرنى بالسعادة . بل مما يسعدنى أكثر أنك ستظلين فى مسكنك حيث انت الآن دون أن تهجرينى .. أنا الرجل العجوز وأصارحك لك أن خطابك قد أثلج صدرى وأسعدتنى هـــذه الطريقة التى أظهرت بها تقديرك لمشاعرى ، ولست أقول هذا بدافع من كبريائى فحسب ، بل لأننى رأيت انك تحبيننى وتقدرين كل أحاسيس قلبى ...

ولكن فيم الحديث عن قلبى ؟ فما قلبى فى نهاية الأمر غير قلبى أنا فحسب ... ولكنك تقولين ياعزيزتى إن المرء يجب ألا يكون ضعيف القلب هذا حق ياحياتى : يجب ألا يكون المرء ضعيف القلب ، ولكنى مع هذا ياصغيرتى هناك أشياء أخرى كثيرة يجب أن نفكر فيها ، فهناك

النعال أيضاً ، النعال التى سأنتعلها غدا إلى مكتبي . . . هـذه هى المشكلة ومثل هذه المشكلات جديرة بأن تحطم المرء ، وجديرة بأن تحطمه تماما. وليس مايعذبنى هو شعورى أنا فأنا لا أعبـــأ بشىء ، ولا يضيرنى أن أمضى فى ملابسى الداخلية عارى القدم فى الصقيع القارس . ماذا يعنينى هذا كله ؟ فما أنا إلا رجل ضئيل من عامة الشعب ، ولكن ماذا سيقول النـاس ، وأى السنة سوء ستنطلق من أفواه أعدائى لو رأونى أمضى بغير معطف ؟ ومايرتدى المرء معطفا إلا خشية هـذا ، بل لعله لا يلبس النعال إلا خشية هذا أيضا ، وهكذا ترين يافارنيكا أن النعـال أمرجوهرىإذا ماأردت أن أحتفظ بشرفى أو سمعتى... والنعال الممزقة قد تفقد المرء هذا وذاك معاً وثق أن هذه هى الحقيقة ياحبيبتى . فلقد علمتنى هذا سنوات من التجربة ، وعلى هذا فمن الخير أن تصدقى رجلا عجوزاً يعرف جيـــداً حقيقة العالم وحقيقة البشر الذين يعيشون فيه ؟ ولا تصغ مطلقاً لتفاهات الكتاب والمؤلفين . .

ولكنى لم أخبرك ياحبيبتى بعد بما حدث اليوم . إن ما قاسيته هذا الصباح يكفى لأن يشقى به شخص آخر عاما بأكمله وإليك ماحدث .

لقد ذهبت فى ساعات الفجر الندية لكى أجد الرجل فى منزله. وحتى لا أتأخر عن موعد عملى ، وكانت السماء تمطر والأوحال تملأ الطريق . فالتففت فى معطفى ، وأسرعت فى طريقى وأنا أفكر وأدعو السماء .

— يا إلهى الرحيم . . إغفرلى خطاياى واستجب دعائى هـذه المرة فحسب . وحينما مررت بكنيسة رسمت علامـــة الصليب ودعوت الله من أعماقى أن يغفر لى خطاياى ، ولـكنى تذكرت أن الله لايحب الصفقات أبداً . فمضيت فى سبيلى تائهـا مع أفكارى لاأدرى شيئا ولا أعبأ بشىء مما يصادفنى فى طريق . . وكانت الشوارع خالية ، والقلائل الذين لقيتهم كانوا مثلى تماما ، غارقين فى القلق والهموم .. ولا عجب .. إذ لا يمكن أن يمضى فى مثل هذه الطقس إلا من كان مثلى . والتقيت بحفنة من العمال البؤساء ، ولـكن الأشرار دفعونى فى طريقهم غـــير عابئين . وفجأة أحسست بالحنق والاضطراب فلم أعد أعبأ بالمال ... وقلت لنفسى : محاولة أخرى ثم أدع الأمر كله ، وماإن وصلت إلى قنطرة « فوسكر سنسكى » حتى انفصل نعل حذائى وبدأ يصفق ، وبات من العسير على أن أتابع سيرى ، ولم يقابلنى فى مثل هذه الحال من بين خلق الله جميعاً سوى يرمولايف — وهو ناسخ فحسب ، بجرد كاتب صغير ، وتسمر فى مكانه حين رآنى وتبعنى بنظراته كما لو كان ينتظر منى قطعة من نقود يشرب بها نخب صحتى . . وحدثت نفسى قائلا : يشرب نخب صحتى . . ومن يهتم بصحتى الآن . . ولـكنى لم أعبأ ومضيت فى طريق . ولم أستطع أن أمضى إذ انتابنى التعب فوقفت لأستريح هنيهة ، ثم واصلت السير و نظرت حولى أبحث عن شىء أركز فيه انتباهى ، شىء ما أشغل به خاطرى أو يشجعنى ، ولـكن عبثا حاولت فلم تطرأ لى ولو

فكرة واحدة ثم اندفعت فى بركة من الأوحال ، فعلتنى الأقذار حتى كدت أبكى خجلا ، وأخيراً لمحت من بعيد منزلا خشبياً أصفر اللون وطابقه الثانى مثلث الشكل . وقلت لنفسى .

— هذا هو بيت « ماركوف » تمـــاما كما وصفه لى إيفانوفتش (وماركوف هـذا هو من يقرض الأموال بالربا) ، ولـكننى كنت عصبيا ، وعلى الرغم من معرفتى بأن هـذا هو بيت ماركوف أحببت أن أتيقن فسألت البواب لمن يكون هذا المنزل أيها الصديق ؟

وأجابنى الرجل إجابة تتسم بالجفاء ، إجابة بواب حقا إذ قال :

.. هنا منزل ماركوف إذا كان يعنيك أن تعرف !

إن هؤلاء البوابين متبلدو الإحساس ! ولـكن لم آبه له طبعاً وإن ترك هذا الرد مرارة فى فمى . إن الأمور يتوالى بعضها من بعض ، وتنعكس كل تفاهة على حالة المرء . وطفت بمنزل الرجل ثلاث مرات وفى كل مرة كنت لاأجد الشجاعة على الدخول . وقلت لنفسى :

— إنه لن يعطينى النقود — لن يعطينى إياها أبدا . إننى غريب عنه رث المظهر ، والموضوع حرج — ولـكن دع المقادير تجرى فى أعنتها . سأفعل ذلك حتى لاألوم نفسى من بعـد وعلى كل حال فان يأكلنى الناس .

وهكذا فتحت البوابة فى حذر ، ودخلت ، ولكن منذ هذه اللحظة بدأت المشكلات — لقد انبرى لى جرو صغير خبيث جعل ينبح نباحاً متواصلا ، وتفاهة حقيرة مثل هذه قد تدفع بالإنسان إلى الجنون ، فهى توهن من عزمه وتقلب كل مشروعاته رأساً على عقب ، فقد دخلت المنزل وأنا أشبه بالموتى منى بالأحياء ، فاذا بى أواجه مشكلات أخرى : فعلى عتبة الباب تعثرت بامرأة عجوز ، ولم أكن قد تبينتها فى غبش الفجر وكانت عاكفة على أوعية لبن تملؤها فانقلبت الأوعية طبعا فأخذت تعوى وتصرخ فى وجهى قائلة .

— ماذا تفعل هنا ؟

ثم عادت تصب على رأسى الشتائم مرة بعد أخرى.

وإنى لأروى لك هذا يافارنكا لأن مثل هذه الأشياء تحدث لى دائما وفى ظروف مثل هذه وهذا مصيرى . أن أقع دائما فى مشكلات . وأقبلت على الضجة ربة الدار وهى امرأة فنلندية قبيحة المنظر ، فسألتها هل يقطن ماركوف هنا ؟ فأجابتنى هذا ليس بمنزله ، ولكنها عادت تتفحصنى ، ولعلها غيرت رأيها إذ سألتنى عن الدافع لى إلى رؤيته ؛ وشرحت لها أن يمليان إيفانوفتش قد أرسلنى وأخبرتها بكل شىء . وعندئذ نادت العجوز ابنتها ، وهى فتاة أميل إلى الطول حافية القدمين وقالت لها :

— إستدعى أباك ، إنه فى الطابق الثانى مع المستأجرين .

ثم التفتت إلى وقالت .

— تفضل بالدخول .

فدخلت ، وكانت الغرفة مريحة إلى حد كبير وقد زينت جدرانها بصور أغلبها لقواد عسكريين ، وفى الغرفة أريكة ومنضدة مستديرة ، وأصص ريحان على النافذة . وقلت لنفسى: لعلنى أحسن صنعاً لو خرجت قبل أن تفوت الفرصة ، وكدت أركض خارجاً ياعزيزتى ، وقررت أن أعود إذا كان الغد ، لعل الجو سيكون أفضل وصور القادة على الحائط تبدو أقل غضبا ، ودون أن أسكب اللبن كما سكبته اليوم. وكنت على وشك أن أتخذ طريقى إلى الباب عندما دخل هو : رجل ضئيل عجوز زائغ البصر ، فى ثوب يعلوه الوهن قد شد حول الخصر بميل . وعندما سألنى عن مطلبى حدثته عن يميليان إيفانوفتش والأربعين روبلا التى أريد — ولكنى لم أحاول أن أنهى حديثى ، فقد رأيت فى عينيه أننى قد فشلت . وأخيراً قال :

— أنت فى حاجة ملحة إلى المال ، ولكن ليس عندى مال — وأى ضمان يمكنك تقديمه إلى . ؟

وأوضحت له أن ليس عندى ضمان أقدمه ، وذكرت ثانية يميليان إيفانوفتش ، وأكدت له مرة أخرى أن الأمر ملح ، فسألنى .

— وما علاقة يميليان إيفانوفتش بهذا ؟ ليس عندى مال . .

وقلت لنفسي : من الطبيعي أنك لا تملك ، وكنت أعرف هذا طيلة الوقت . آه يا فارنكا . لو أن الأرض قد انشقت فابتلعتني ساعتها ؛ لقد تسمرت قدماى ، وتملكتني قشعريرة مباغتة . وجعلت أنظر إلى الرجل والرجل ينظر إلى وتكاد عيناه تقولان.

— ماذا تنتظر . ؟ من الأفضل أن تمضى . .

ولو لم يكن هذا عملا جديا للأنانى الضيق .

— ولماذا تريد المال ؟ .

هذا هو بالضبط السؤال الذى وجهه إلى . .

وبدأت أتحدث مرة أخرى لمجرد الحديث فحسب : ولكنه لم يعد يصغى إلى وقال :

— كلا .. ليس عندى مال . إنى لآسف .

ولكنى رحت أقنعه وأتوسل إليه : فوعدته أن أرد إليه ماله فى الموعد الذى يحدده ، بل قبل الموعد الذى يحدده ، وأن أدفع أية فائدة يطلبها . بل طلبت منه أن يعطيني جزءا من المبلغ الذى طلبته أول الأمر ؟ وفى هذه اللحظة كنت أفكر فيك يا حبيبتى ، وفى نصف الروبل الذى أعطيتني ، وفى كل مشكلاتنا وضروريات حياتنا .

ولكنه قال :

— كلا — لا تذكر الفائدة : يجب أن تقدم أى شيء ضماناً لوفائك بالدين ، وأقسم بالله أنى آسف .

بالله ! . . ذلك اللص يعبث باسم الله . .

والحق أننى لا أذكر كيف تركت الدار ، واخترقت الشارع والكوبرى . كنت مجهداً يكاد يقتلنى البرد . ووصلت الديوان متأخراً ، فى العاشرة صباحا . وأحببت أن أنظف الملابس ، ولكن منعنى عن هذا سبخيريوف الحاجب ، إذ كان يخشى أن أفسد الفرشاة ، والفرشاة من أملاك الحكومة قبل كل شيء . وإلى هذا الحد بلغ امتهانهم لى يا عزيزتى ، وهذا هو ما يقتلنى يا فارنسكا وليست الحاجة إلى المال ولكنها هـــذه البسمات والنكات والتلميحات . وماذا لو تصادف وسمع بها سعادته .

— يا لها من أيام شريرة تلك التى أحياها ؟ . .

لقد أعدت تلاوة خطاباتك كلها اليوم يا حبيبتى ، كم هى حزينة . إلى اللقاء يا عزيزتى . وليباركك الرب .

م . دوفشكين

ملاحظة : لقد حاولت أن أصف آلامى بشيء من الفكاهة فأسليك ، ولكنى لم أفلح . سأزورك يا عزيزتى . سأزورك غداً بكل تأكيد .



١١ من أغسطس

فارفارا أليكسيفنا . . يا يمامتى الصغيرة

. . لقد ضعت ! بل لقد ضاع كلانا دون أمل ! لقد تحطم كل شيء ، سمعتى . . وشرفى . لقد قضى على وقضيت أنا عليك يا عزيزتى المسكينة ، فأنا السبب فى ضياعك ؟. إنهم يضطهدوننى ويحتقروننى ويسخرون منى ، بل لقد اجترأت ربة الدار على أن تلعننى . بل إنها صاحت فى وجهى فعلا وعاملتنى كما لو كنت شيئا قذرا ! وفى ندوة راتازيف قرأ أحدهم بصوت مرتفع مسودة خطاب كتبته إليك : وكانت قد وقعت من جيبى . وكم علقوا بنكاتهم علينا ! وقالوا كل ما يمكن أن يخطر ببال ! وكانوا يقهقهون ! . . هؤلاء الخونة . فثرت واقتحمت الغرفة ، ووصمت « راتازيف » بأنه صديق غادر خائن ، ولكنه رد على بأننى أنا الخائن لا هو ، وأننى رحت أغزو قلوب النساء ، ونعتنى بالخبث وبأنى زير نساء . وهذا هو ما يدعوننى به كل شخص الآن . زير نساء . إنه لأمر فظيع يا حبيبتى ، ولكنهم يعرفون كل شيء . كل ما يمكن معرفته عنى وعنك . بل تخيلى أن فالدونى قد جاراهم فى سخريتهم ، عندما طلبت منه أن يذهب إلى البقال ليشترى لى شيئا رفض قائلا إنه مشغول . وقلت :

ـــ ولكنه واجبك .

فقال : كلا ليس هذا واجبي ، لأنك لا تدفع إيجار غرفتك .

ولم أستطع أن أتحمل مثل هذه الإهانة من فلاح غبي ونعته بالحماقة. أتعلمين بما أجاب ؟ . إن الذى يقول هذا هو الأحمق ! ولم أصدق أن الرجل فى كامل وعيه ، فصحت به :

ـــ أنت ثمل أيها الغبي .

فرد على قائلا :

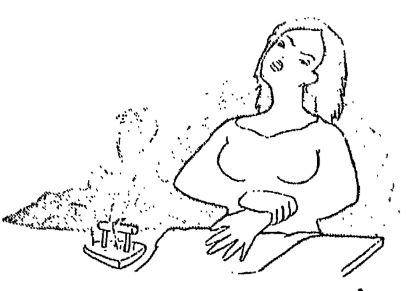
ـــ وهل سكرت بمالك ؟ لماذا : إنك ما تشترى به لنفسك شيئا يرد عليك وعيك بعد ليـــلة الأمس ؟ ألم تحاول إستجداء عشرة كوبكات من السيدة ؟ .

ثم أضاف إلى هذا كله .

ـــ إنك نوع لطيف من السادة !

هذا هو ما صرنا إليه يا فارنكا حتى لقد بت خجلان من حياتى . لقد عوملت كمنبوذ طريد لا يحمل جواز المرور . أى نكبات تنزل بى ؟ لقد قضى على قضاء لا أمل بعده .

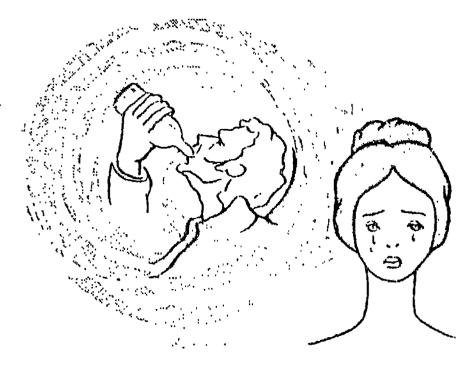
م . د



١٣ من أغسطس :

لقد تكاثرت علينا النكبات ياعزيزى ماكار حتى لا أكاد أدرى ما العمل ؟ . وماذا سيكون مصيرك ؟ وكيف يمكننى أن أكون ذات فائدة ما لك ؟ ولقد أحرقت يدى بالمكواة اليوم فقد أفلتت من يدى وأحرقتنى . وماذا سأفعل الآن ؟ إننى لا أستطيع العمل ، وفيدورا مريضة منذ أيام ثلاثة . إننى فى هم مقيم . أرسل إليك ثلاثين كوبكا من الفضة، وهذه هى كل ما نملك ، ويعلم الله أننى كنت أحب أن أمد لك يد العون أكثر من هذا ، ولكن الحال بلغت حدا يستدر البكاء . إلى اللقاء ياصديقى العزيز وسيكون من دواعى عزائى لو أقبلت لزيارتى اليوم.

ف . د



١٤ من أغسطس ..

يا ماكار أليكسيفتش ..

.. ماذا دهاك ؟ هل فقدت خوفك من الله ؟ . إنك تدفعنى إلى الجنون . يجب أن تخجل فأنت تحطم نفسك . فكر فى سمعتك . . أأنت الرجل المحترم الوقور ؟ كيف استطعت أن تفعل هذا ؟ وماذا لو سمعوا به فى الديوان ؟ ستموت خجلا حينذاك . تذكر شعرك الأشيب ولا تفقد خشيتك من الله . فيدورا تقول إنها لن تساعدك بعد اليوم ، ولن أساعدك أنا أيضاً . أتظن أن مسلكك لا يعنينى ؟ . أنت لا تعلم كم أقاسى بسببك ؛ فما أكاد أجرؤ على الظهور فى درج بيتى على حين أنه كل شخص ينظر إلى ويقول مختلف الأقاويل : إنهم يقولون إننى قد ارتبطت « بسكير » . وعندما يحملونك ثملا إلى المنزل أسمع النـاس

يقولون : « لقد عادوا بذلك الكاتب مرة أخرى » ويكاد العار يبكيني . أقسم لك أنني سأرحل عن هنا فإني لأوثر العمل كخادمة أو غسالة على البقاء هنا .

لقد طلبت منك أن تأتى لرؤيتى ، ولكنك لم تفعل ، فما تغنى دموعى وتوسلاتى شيئا عندك يا ماكار اليكسيفتش . ومن أين لك بالمال ؟ . . بربك ، هلا تعتنى بنفسك ! إنك تحطم حياتك . . فلماذا ؟

ولقد بلغنى أن ربة الدار لم تسمح لك بدخول الشقة ، فكان لزاما عليك أن تقضى ليلتك فى الدهليز . . وياللعار . . أى مرارة شعرت بها عندما بلغنى هذا .

تعال لزيارتنا فستشعر بالسعادة بيننا ، وسنقرأ معاً ، ونتذكر الماضى . وستروى لنا فيدورا عن الأماكن المقدسة التى زارتها . وأستحلفك بالله أيها العزيز ألا تحطم نفسك وتحطمنى . فأنا أعيش من أجلك أنت وحدك وما من شىء يمنعنى من الرحيل عن هنا سواك . كن رجلا شريفا لا يخضع للرذائل ، وتذكر أنها ليست خطيئة أن تكون فقيراً . ولماذ يبلغ بك اليأس هذا الحد . ؟ إن الله رحيم وستنتهى كل متاعبنا ، ولكنك يجب أن تتحملها حتى تزول .

أبعث إليك بعشرين كوبكا لتشترى بها طباقا لضيوفك أو أى شىء

آخر تحتاج إليه الآن ، ولكنى أناشدك الله ألا تنفقها على الخمر .

أرجوك أن تأتى لزيارتنا ، وإذا كنت تخجل أن تأتى كما تعودت فدعك من خجلك هذا ، تخل عن كبريائك المزيفة ، واطلب التوبة مخلصاً وثق فى الله الذى سيدبر كل خير .

ف . د



١٩ من أغسطس

فارفارا أليكسيفنا ، يا عزيزتى الجميلة ..

إننى خجل حقاً ياحياتى حتى لأدارى وجهى خجلا ، ولكن أى ضرر قد وقع فعلا ياعزيزتى ؟ ولماذا لانسعد القلب مرة فى العمر ؟ إننى أنسى ساعتها أن خروق حذائى تؤلمنى ؛ لأنى إذا ما فكرت أجد أن الخروق لاشىء، مجرد تفاهة ؛ وستظل خروقا قذرة بشعة لاخير فيها .

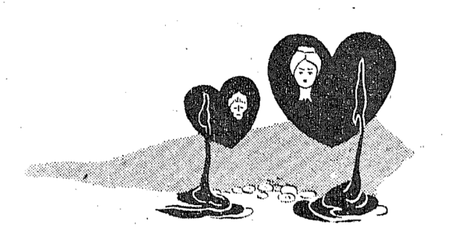
بل الأحذية أيضاً لغو فارغ . وإذا كان حكماء اليونان قد استطاعوا المشى دونها فلماذا نكلف أنفسنا شيئاً لا جدوى منه ؟ لماذا يسخر منى الناس إذن ويدأبون على إهانتى ؟ . ألم تجدى ماستكتبينه خيراً من هذا ياعزيزتى الصغيرة ، أخبرى فيدورا على لسانى أنها امرأة خاوية العقل ، امرأة قاسية متعبة وغبية أيضاً ، وحمقاء إلى أقصى حد . أما عن شعرى الأشيب فلقد أخطأت يا عزيزتى فلست من الهرم كما تتوهمين . يميليان يرسل تحياته. ولقد كتبت إلى تقولين إنك تحطمت بسببى وبكيت

وأقول إننى أيضا قد تحطمت بسببك ، وبكيت كذلك .

وختاما أتمنى لك صحة طيبة ومزاجاً طيباً . . أما عنى فأنا بخير ، وسأظل . . ياملاكى الصغير

صديقك

ماكار



٢١ من أغسطس

صديقتى العزيزة المحبوبة فارفارا أليكسيفنا

إنى لأشعر بجرمى ياعزيزتى ، ولكن ما الفائدة ، مادمت قد شعرت به من قبل عندما ارتكبت ذنوبى وكما أشعر الآن ؟ ولكنى مع هذا عدت وارتكبتها رغم شعورى الكامل بالذنب .

ياحبيبتى العزيزة : لست بالشرير المتحجر القلب ، ولكى يؤذيك إنسان ياطفلتى يجب أن يكون له قلب نمر ضار ، أما أنا فقلبى قلب حمل وديع ، ولست بالمتوحش أبدا كما تعرفين .

هذا إلى أننى لست وحدى الملوم ياعزيزتى ، وليس قلبى ولا عقلى أيضاً . أما من الملوم فذلك ما لا أستطيع قوله إنه شىء غامض ياعزيزتى لا أستطيع تبينه .

لقد بعثت إلى ثلاثين كوبكا من الفضة ، ثم أرسلت عشرين أخرى ، وجلست أنا هناك . . أرقب فضة اليتيمة المسكينة ، وقلبى يخفق ألما ،

فلقد أحرقت يديك ولا تستطيعين عملا وسرعان ما ستهلكين جوعا ، ومع هذا ترسلين إلى نقودا أشترى بها طباقا لغليونى ! يا إلهى . . ماهذا الذى فعلت ؟ أأنتهب يتيمة فقيرة دون رادع من ضميرى ؟ و ملكتنى كآبة عميقة ياعزيزتى ، فشعرت بادىء الأمر أننى تافه وأن رقع أحذيتى لخير منى . وهكذا بدالى مضحكا أن أعتبر نفسى شيئا له أهميته ، بل على العكس لقد قررت أن أعتبر نفسى شيئا لا أهمية له ، شيئا لاجدوى منه . وما كدت أفقد احترامى لنفسى حتى أنكرت كل فضائلى واحترامى لنفسى . وكان هذا هو بداية سقوطى . . إنه القدر كما تعلمين .

وبدأ الأمر بأن خرجت طلبا لهواء ينعشنى ، ثم تعقدت الأمور ، فأفضى أمر إلى غيره وهكذا : وكانت الطبيعة حزينة ، والجو بارد والسماء تمطر . وقابلت يميليا فى طريق . . وكان قد رهن كل شىء يافارنكا : كل مايملك ارتهنه ولم يكن لديه كسرة من خبزه طيلة يومين ، والآن كان يريد أن يرهن شيئا لايملكن أن يرهن أبدا ، والحق يافارنكا أننى استسلمت بدافع من شفقتى وحزنى من أجل الرجل أكثر مما فعلت بدافع من رغبتى .. وهذا ارتكبت الخطيئة . وبكينا كثيرا وتذكرناك . إنه روح عطوف يميليا هذا . . رفيق طيب القلب .

وأنا أحس بكل هذه الآلام ، وهذا هو السبب فى أن كل هذه الأشياء تحدث لى — لأننى أحس . وأنا أعلم كم أنا مدين لك ياعزيزتى ، وعندما عرفتك عرفت نفسى على حقيقتها وعرفت كيف أحبك .

وقبل أن أعرفك ياملاكي كنت وحيدا فى عالمى ، وما كنت أحيا بل أنام .

وفى تلك الأيام تعود الأشرار أن يقولوا كثيرا حتى إن هيئتى كلها خطأ ! وظلوا بى يحتقروننى حتى وصلت أخيرا إلى أن أحتقر نفسى ! تعودوا القول بأننى أحمق غبى حتى وصلت إلى أن أرى هذا عن نفسى. ولكن عندما ظهرت فى حياتى وكأنك رؤيا من السماء ، أدخلت النور فى وجودى المظلم ، أدخلت النور فى قلبى وروحى ونعمت أخـــيرا بالسلام ، إذ علمت أننى لست أسوأ من الآخرين .

لعلنى أفتقر إلى المنظر أو طريقة الحديث أو الأناقة ولكننى رجل : قلبا وعقلا .

فلما ناء قلبى من عبء النكبات شعرت أننى طريد شريد ولم أعد أقدر احترامى لنفسى . . وفقدت قلبى .

والآن وقد ذكرت لك كل شىء ، اتوسل إليك والدموع فى عينى ألا تذكرى هذا الموضوع مرة أخرى ، فأنا حزين مكدود محطم القلب.

لك منى خالص الاحترام ياعزيزتى وسأظل ...

صديقك إلى الأبد

ماكار دوفشكين



٣ من سبتمبر

إنى لم أتم خطابى الأخير إليك يا ماكار الكسيفتش

إذ كان من العسير على أن أكتب ، فثمة لحظات أحب أن أنفرد فيها بنفسى وأن أطلق العنان لوحدتى وشجنى ، وهذه الحال تعاودنى بكثرة هذه الأيام . إن فى الذكريات شيئاً غريباً يصعب على المرء تفسيره. شيئاً ما يحملنى بعيداً دون أن أستطيع له مقاومة حتى لأنسى كل شىء لعدة ساعات . ولا يمر بى الآن إحساس حزين أو سار دون أن يذكرنى بشىء يماثله وقع لى فى ماضى أيامى ، ولاسيما ما وقع لى فى طفولتى الذهبية . بيد أن الكآبة تستبد بى بعد هذه اللحظات ، ويزداد ضعفى فأحلامى تكاد تستنفد قواى وصحتى تتدهور من سىء إلى أسوأ

ولكننا نتمتع اليوم بصباح مشرق مرح مما يندر فى الخريف ، وأنا أشعر بالصحة والسعادة ، إذن لقد أقبل الخريف ، كم كنت أحبه حينما كنت فى الريف ، وكنت طفلة يومئذ ولكن إحساسى بالأشياء كان عميقاً ،

وكانت أمسيات الخريف أحب إلى قلبي من صباحه . وكانت ثمة بحيرة قائمة وراء التل ، على مسافة يسيرة من بيتنا . . بل إنى لأكاد أتخيلها الآن ، رحبة لامعة كصفحة واسعة من البللور ، وإذا كان المساء هادئاً طواها السكون فلم تصدر همسة واحدة من الأشجار العالية التى تطل عليها وأصبح الهواء رطباً منعشاً . ورصعت قطرات الندى العشب الأخضر ، وبدت الأضواء فى النوافذ تحت الأسقف المصنوعة من اللبن فى الوقت الذى تعود فيه الماشية إلى مأواها .

فى ذلك الوقت كنت أحب أن أتسلل بعيداً إلى بحيرتى ، فأنسى كل شيء من حولى . وأرقب الأشعة تعدو على صفحة الماء وقد انعكست من النيران التى أشعلها الصيادون على الشاطىء ، وأرقب السماء الباردة الزرقاء وقد مستها حمرة ذابلة حتى يطلع القمر ، والهواء الساكن يردد كل صوت كأنه جرس فضى : جناح طائر أو همسة مكتومة أو سمكة تعبث فى الماء ، ثم يبدو الغمام رقيقاً شفافاً فوق صفحة المياة المظلمة ، ويبدو كل شيء من بعيد غامضاً حتى يختفى : وعلى مدى البصر يلوح كل شيء واضحاً حتى لكأنه منحوت : القوارب ، وحافة الماء . والجزر الصغيرة ، أو برميل مهمل فى المياه أو غصن أصفر من شجرة يعبث به التيار وقد يغطس طائر بحرى تخلف عن رفاقه إلى الأعماق الباردة ثم يطفو إلى السطح مرة أخرى . وأنا جالسة هنالك ، أرقب واصغى وأشعر بمشاعر غريبة فقد كنت طفلة حينذاك .

نعم ، كنت أحب الخريف . لاسيما أواخره : حينما يتم الحصاد وينتهى العمل كله ، ويتجمع الفلاحون فى مكان ما ، يتحدثون ... ويغنون . . . وينتظرون الشتاء .. تبدو الأشياء جميعا مظلمة مكفهرة بالسحب. وحيث ترقد أوراق الشجر الصفراء كثيفة عند أطراف الغابة الجرداء ، ويشتد ظلام السماء ثم يضرب إلى الزرقة وخاصة قرب المساء عندما يستقر الضباب وتغوص الأشجار . . . تغوص فى الأعماق كأنها مردةأو أشباح ضخمة .

ولقد مضت أوقات تصادف فيها أن أكون خارج منزلى فى ساعة متأخرة من الليل أو أن أتخلف عن الآخرين خلال نزهة فى الليل — وفجأة أدرك أننى وحدى ، فأركض إلى المنزل وقد ملأ الرعب قلبى ، وأنا أرتعد مثل ورقة فى مهب الريح متوقعة أن يواجهنى وجه مخيف يحدق فى من جوف شجرة ، وعندئذ تعربد الرياح خلال الغابة ، فتزأر وتئن وهى تكتسح فى طريقها الأوراق الباقية على الغصون العارية . ثم تتبعها الطيور فى جماعات ضخمة تثير الضوضاء ، وتحجب وجه السماء . ويملؤنى رعب لا يوصف وأتخيل أنى أسمع صوتاً يهمس .

— أسرعى ياطفلتى — أسرعى بعيداً ! ستكون الحال مروعة هنا بعد قليل . . أسرعى .

وأركض أنا إلى أن تنقطع أنفاسى ، فإذا ما وصلت إلى بيتنا آخر

الأمر وجدت كل شيء مرحاً دافئاً ، ونأخذ نحن الأطفال ، فى فض الخشخاش أو الفول على حين يقرقع الخشب المندى فى المدفأة، ووالدتى - عانا ومربيتى العجوز يوليانا تقص علينا ماسلف من أيامها أو تحكى لنا قصص السحرة والخفافيش الكبيرة ، ويتلاصق بعضنا ببعض ولكنا نبتسم ونحن نصغى إليها . ثم تسودنا فترة صمت : ألم يطرق الباب أحد ؟ كلا إنها فرولوفنا العجوز تغزل على عجلتها فتتعالى ضحكاتنا ، فإذا آويت إلى فراشى لم أستطع نوما خوفا من الأحلام وقد أهب من نومى مذعورة فى منتصف الليل وأنا أخشى أن أتحرك وأظل مستيقظة حتى الفجر .

غير أنى كنت أصحو فى الصباح نشيطة منتعشة كزهرة ، فأنظر من نافذتى وأرى الحقول قد وخطتها الثلوج ، وأن صقيع الخريف يتشبث بالأفرع الجرداء ، والغدير تغطيه صفحة رقيقة من ثلج تلمع تحت الغمام ، والطير تعبث وتطلق صيحات مرحة ، ولكن سرعان ما تذوب هذه القشرة الرقيقة من الجليد التى تغطى سطح البحيرة — تحت أشعة الشمس الدافئة ، وإذا بالعالم كله زاه مشرق مفعم بالحياة والسعادة، والمواقد تزأر مرة أخرى ، ونحن نجلس حول موقد الشاى وكلبنا الأسود «بولكان» لايزال يرتعش من برد الليل ، وهو لايزال ينظر إلى النافذة ويهز ذيله مرحا ، وعربة يقودها فلاح تمر بنا مسرعة فى

طريقها إلى الغابة طلبا للخشب ، وكلنا راض مبتهج فى تلك الأيام السعيدة .

إن هذه الذكريات تثير بكائى : فالماضى مشرق زاه سعيد ، والحاضر مظلم كئيب ، وكيف سينتهى هذا كله يا إلهى العزيز ؟

أتعلم أن شعورا يراودنى بأننى سأموت هذا الخريف : أنا واثقة من هذا ، وأنا مريضة — مريضة جدا ، وكثيراً ما أفكر فى هذا ، ولست أريد أن أموت هنا وأن أدفن فى هذه الأرض . ولعلى سألزم الفراش مرة أخرى كما فعلت فى الربيع الماضى ، وأنت تعلم أننى لم أسترد صحتى حقا وها قد عاد المرض يلح على . إننى وحيدة تماماً ؛ ففيدورا غائبة عن الدار طيلة يومها ، وثمة أوقات تمر بى أخشى فيها الوحدة ويملؤنى شعور غريب بأن معى شخصا آخر فى الغرفة ، شخصا آخر يحدثنى ، وخاصة عندما أفيق من هواجسى . ولعل هذا ما جعلنى أكتب مثل هذا الخطاب الطويل ، فالخوف يهرب عنى عندما أكتب .

إلى اللقاء ، فيجب أن أنهى خطابى فقد انتهى ما عندى من ورق ، هذا إلى أننى مشغولة ، ولم يبق عندى من مال سوى روبل واحد من الفضة . إننى ؛ سعيدة لأنك أعطيت صاحبة دارك روبلين من الفضة ، لعل هذا يسكتها فترة من زمن .

حاول أن تصلح من ملابسك ، وداعا ياصديق ؛ فإنى ضعيفة يصيبنى الكلال بسرعة ، وأى مجهود ينهك قواى ، فكيف إذن سأستطيع العمل حتى لو تيسر العمل ، إن مجرد التفكير فى هذا وحده يقتل كل أمل .

ف . د



٥ من سبتمبر . .

عزيزتى فارنكا .

تبدلت على هذا الصباح أحاسيس شتى . أولها صداع تملكنى ، فمضيت أتنزه على شاطىء فونتانكا أطلب منه خلاصا ، وكان المساء رطبا مظلما والظلام يخيم على الدنيا بعد الساعة الخامسة كما تعلمين ، ولم يكن ثمة مطر ، بيد أن الضباب كان أسوأ من أى مطر ، وملأت صفحة السماء غيوم ضخمة متقطعة ، والناس يغدون مسرعين إلى الشاطىء ، والغريب أن وجوههم جميعا علتها مسحة من كآبة وقنوط : كانوا فلاحين سكارى ، ومعقوفى الأنوف عراة الرءوس ، ونساء فنلنديات فى أحذية طويلة ، وعمالا ، وسائق عربات ، وكتابا حكوميين من كل نوع ، وصبيا نحيلا مسلولا فى قميص مخطط قد سود الشحم وجهه وأمسك فى يديه قفلا ضخماً ، ثم جنديا مطرودا من الخدمة فارع الطول . وكان يبدو أن الناس يتدفقون كل يوم فى مثل هذه الساعة ، وكانت الترعة نفسها جديرة

بالملاحظة أيضاً إذ كيف يمكن أن تتسع لكل هذا العدد من القوارب ؟ وعلى الكوبرى جلست نساء يبعن كعكاً معسلا مبللا ، وتفاحاً عفناً ، لكن بمجموعة كبيرة منهن كن ملطخات بالأوساخ والقذارة . وأدركت أن فونتانكا ليست بالمكان الذى يتنزه فيه المرء ، فليس فيه غير أوحال تزل منها القدم ، ومنازل عالية تنفث الدخان . والضباب يكتنف كل جانب ويحيط بالرءوس . . يا له من مساء حزين كان ذلك المساء .

وعندما انحرفت إلى شارع جوروفايا كان الظلام قد أرخى سدوله وبدأ العمال ينيرون مصابيح الغاز . ولم أكن قد زرت هذا الشارع منذ أمد بعيد ، فبدأ لى مليئاً بالحركة والحياة ، ففيه المحال الجميلة ، كبيرها وصغيرها ، كلها تلمع وتزهو بما فيها من بضائع غالية وزهور وقبعات محلاة بالأشرطة ، حتى ليظن المرء أنها ما وضعت كلها على هذا النظام إلا حباً فى الجمال فحسب . أيشترى الرجال أشياء جميلة كهذه لزوجاتهم ؟ إنه شارع غنى يعيش فيه كثيرون من الخبازين الألمان ولا بد أنهم أغنياء . والشارع ملىء بالعربات ولست أدرى : كيف تتحملها حجارة الطريق ؟ وأى عربات فاخرة كانت تلك التى تبدو لامعة النوافذ محلاة بالحرير والقطيفة ، على جانبها القواصون بشاراتهم وسيوفهم .

ونظرت داخل كل منها أثناء مرورها وأخذت أتساءل هل السيدة التى بداخلها كونتيسة أو أميرة ؟ وكانت تلك الساعة هى الوقت المعتاد الذى يذهب فيها الناس الى المراقص والحفلات الساهرة . ولعله من

الممتع أن يشاهد المرء عن كثب كونتيسة أو حتى أى سيدة عظيمة . أنا واثق أنها متعة كبيرة ، ولم أحظ أنا بمثل هذه الفرصة اللهم إلا وأنا أسترق النظر فى عربة كما فعلت ساعتها . ولقد فكرت فيك أيضا ، وكم آلمنى هذا يا عزيزتى المسكينة . لماذا أنت بائسة يا فارنكا ؟ . وأى شيء ينقصك عن الأخريات ياملاكى الصغير العزيز ، وأنت جميلة مثقفة طيبة القلب ؟ فلماذا تقسو عليك الحياة ؟ ولماذا يجب أن يعيش رجل طيب فى عوز وحاجة على حين تسعى السعادة إلى آخرين طائعة مختارة ؟

وطبيعى ياعزيزتى أنه ما كان ينبغى أن تخطر لى مثل هذه الأفكار ، لأن لهـــا مذاق الفكر الحر — لكنى لاأملك إلا أن أتساءل : لماذا يبتسم الحظ لشخص على حين يعبس لآخر لا لسبب إلا لأنه ولد يتيما ؟ وكما يحدث فى القصص الخيالية قد يبتسم الحظ أحيانا لإيفانوشكا العبيط وحينئذ يعبث فى خزائن ميراثه ويعب الخمـــر ، ويمرح على حين يقف حطام مسكين آخر يلعق شفتيه ويرقبه متحسرا ، فهذا كل مايستطيع ! وهذا كل ماولد من أجله !

إنها لخطيئة طبعاً أن يفكر المرء على هـذا النحو ، ولكن هناك بعض الخطايا التى تتسلل إلى القلب قبل أن يحس بها المرء .

لقد تساءلت لماذا لا يمكنك أن تركبى إحدى هذه العربات ياحبيبتى العزيزة — تركبينها مع القادة والأمراء . لامعنا نحن السمك الصغير ! وكلهم متلهف لابتسامتك الحلوة ؟ ستلبسين عندئذ الذهب والفضة بدلا

من هذه الملابس المتواضعة من التيل . وهل ستكونين حينئذ رقيقة الصحة كما أنت الآن ؟ . . كلا . . لا شيء من هذا القبيل . . ستكونين حينئذ كدمية أتقن صنعها . . جميلة عذبة ممتلئة الجسم ؛ موردة الخدين. كم كنت أتمنى عندئذ أن أختلس النظر إلى نوافذك المضيئة كي أرى خيالك وأطمئن أنك سعيدة راضية .

يا إلهي ، كم يكون هذا ممتعاً ياحبيبتي .. يا عصفورتي الصغيرة . . ولكن كيف تسير الأمور في الحياة الواقعية ؟ لاشيء سوى الأسى، وقد دفعك إلى الأسى أشرار ، لم يكفهم ما ألحقوا بك من إهانة فأضافوا اليها الأذى وأزعجوك بما أشاعوا عنك من اختلاقات كاذبة . ألمجرد أنه يتبختر في معطف جديد ، ويستطيع أن يغمز لك خلال منظاره الذهبي يتخيل هذا الغمر المفتون أنه يستطيع استباحة الحقوق ، وأن على الناس ان تتحمل وقاحته ..؟ أيجب أن يفعل المرء هذا حقاً..؟

ولماذا . . ؟ ألأنك يتيمة عاجزة . دون أصدقاء اقوياء يمنحونك حمايتهم ؟.. أي نوع من الرجال ، ذلك الذي يعتدي على فتاة صغيرة عاجزة ؟ . إنه قطعة من نفاية وليس بالرجل أبداً . . رجل في المظهر فحسب ! أنا واثق أنه كذلك ، بل إن عازف الأرغول الذي صادفته في شارع جوروخوفايا اليوم اكثر رجولة منه . وماذا يعيبه لو قضى يومه في الشارع انتظاراً لكوبك واحد ؟ انه سيد نفسه ويتكسب قوته بنفسه ، إنه ليس سائلا بل يحترق من أجل متعة الناس ، اليكم أمتعوا

أنفسكم ! فهذا ما خلقت أنا له ! ولعله شحاذ بعد كل هذا — شحاذ حقيق ، ولكنه شحاذ شريف من أجل هذا كله ، وبالرغم من التعب والجوع يدأب هو على عمله بطريقته الخاصة ، بل بالطريقة نفسها .

وهناك يا حياتى الكثيرون الذين يقومون بأعمال متواضعة ، ولا يتكسبون منها إلا القليل ، ولكنهم لن ينحنوا لمخلوق أو يستجدوا لأكف ، وأنا بالضبط مثل عازف الأرغول هذا ، أعنى أنى لست مثله على الإطلاق ، ولكنى مثله تماماً من حيث الإحساس الرقيق الشريف فحسب . وأنا أبذل جهدى ما استطعت . فماذا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا ؟

إن ما ذكرنى بعازف الأرغول هو أنى أحسست بفقرى اليوم أكثر مما أحسست به فيما سبق من أيامى ، ووقفت فى الطريق أرقب عازف الأرغول يعزف ، فعلت هذا كى أهرب من نفسى كى أطرد الأفكار الكئيبة بعيدا عن عقلى . ووقف بعض سائقى العربات وامرأة شابة ، وفتاة زرية المنظر ، يرقبونه معى أيضا . وكان عازف الأرغول قد اتخذ له موقعا تحت نافذة من النوافذ . ثم رأيت طفلا فى حوالى العاشرة من عمره لولا هزاله وسقمه لبدا رائع المظهر ، وكان حافى القدمين لا يرتدى إلا قميصا وقد وقف فاغرا فاه يستمع — إن الأطفال هم الأطفال دائما . ولم يستطع أن يرفع عينيه عن الدمية الراقصة على الأرغول بالرغم من

أن ركبتيه كانتا ترتعشان من شدة البرد، وظل يمص كم قميصه، ولاحظت أيضا أنه كان يمسك بقطعة من الورق فى يديه . وأخيراً ألقى أحـــد المتفرجين بقطعة من نقود فى الصندوق الذى كانت ترقص عليه الدمى الرجل الفرنسى (وسيداته) . وأيقظت ذمة العملة الطفل من استغراقه فنظر حائراً إلى المتفرجين . ولا بد أنه ظننى أنا الذى أسقطت هذه القطعة من النقود ، إذ هرع إلى وناولنى الورقة بأصابع مرتعشة ، ورجانى فى صوت متعثر أن أقرأها . وفضضتها : وكانت طبعا عبارة القصة المعتادة : أم تحتضر ، وثلاثة أطفال يتضورون جوعاً ، وضراعة إلى حنان البشر الأعزاء أن يمدوا يد العون . ثم وعد بأنه عندما تموت الأم فستشفع لهم وتذكرهم فى السماء .

ولم يكن بالورقة ما يستغلق على الفهم ، ولـكن ماذا كنت سأعطى الطفل ؟ لا شىء على الإطلاق . ولـكن كم أسفت للطفل ! طفل صغير مسكين مثل هذا ، يكاد يقتله البرد . . والجوع أيضاً . ولم يكن الطفل يكذب على ! كلا لا يمكن أن يكون كاذبا فأنا أعرف هذا جيدا . ولـكن أقذر ما فى الموضوع أن فى الوجود أمهات شريرات يبعثن بأبنائهن إلى الخارج وهم شبه عرايا حيث البرد القارس ، لعل قلبها قد تحجر ، أو لعلها لا تجد من يساعدها فاضطرت إلى البقاء مع أبنائها . ولعلها مريضة حقاً ، ولـكن مع هذا كان من الواجب عليها أن تلجأ إلى السلطات المختصة . أما أن تفعل هذا فهى إنما تتطفل على المارة أو ترسل ابنها الجائع المريض

ليستجدى . وأى نوع من التربية سيحظى بها بسبب هذه القصاصات من الورق ، ها هو ذا يجرى هنا وهناك متوسلا ، ولكن الناس لا تعنى به ، فقلوبهم كالصخر ، وكلماتهم قاسية ، «إمض بعيدا أيها المتشرد !! » «إبتعد عنا بنحسك » .

إن هذا الطفل سيتعود القسوة وهو يرتعش من البرد ، هذا الفرخ الصغير المذعور الذى سقط من عشه لقد تخدرت يداه وهو لا يكاد يقوى على التنفس فى هذا البرد القاتل ، وقبل أن يدرى سيبدأ السعال ، وتزحف المرض متسللا إلى صدره ، وسرعان ما يترصده الموت فى ركن قذر مظلم لأنه ما من شخص سيعنى به أو يساعده . وهكذا تنتهى حيـــاته الصغيرة .

وهذا هو كل ما قدر لبعض الناس من حياة يا فارنكا . وليس من اليسير إطلاقاً أن تسمعى شخصا يقول : « ساعدينى محبة فى المسيح » ثم تمرين به دون أن تمنحيه شيئا اللهم إلا مجرد القول : « فليساعدك الله » فثمة أوقات طبعاً لا تثير فيها كلمات : « محبة فى المسيح » : [فتلك أنواع مختلفة من « محبة فى المسيح » ياحبيبتى] : بعضها يقال فى تنهد آلى ، كما يفعل معظم الشحاذين فإذا لم يمنح المرء شيئا شخصا مثل هذا لم يعذبه ضميره كثيرا ، فهو من النوع الذى تعود الاستجداء ، وسيدبر أمره بأية طريقة ، ولكن فى أوقات أخرى تدوى « محبة فى المسيح » بطريقة غريبة : خشنة مرعبة ، كما سمعتها اليوم عندما كنت أقرأ ورقة الطفل

وقال لى شحاذ يقف إلى جوار الحاجز ، كان واقفا هناك فحسب ، ولا يستجدى مثل الآخرين : قال لى : « امنحنى قطعة من نقود محبة فى المسيح » .

وكان الصوت خشنا حتى إننى انزعجت . ولكن ماذا يمكننى أن أمنحه ؟ كنت لا أملك شيئاً وتخيلى أن بعض الأغنياء يضيقون ذرعا عندما يشكو الفقراء حياتهم القاسية ، ويقولون : إنهم يضايقونهم وينغصون حياتهم !.. هل تقضى أنات الجوعى مضاجعهم ليلا ؟

وأصرح لك بالحق يا حبيبتى العزيزة أنى قد كتبت هذا كله لسببين : أولهما كى أخفف العبء عن قلبي والآخر كى أعطيك مثلا لأسلوبى الجيد فى الكتابة . وكما ترين يا عزيزتى بدأ أسلوبى يتبلور أخيراً . والقنوط يملكنى الآن حتى لا أملك إلا أن أتجاوب أنا وأفكارى الخاصة ، ومع أنى أعلم يا حبيبتى أن مثل هذا التجاوب لن يؤدى بى إلى شىء إلا أنه من الممتع أن يتجاوب المرء وأفكاره ، هذا إلى أنها تؤدى به إلى التواضع وتشعره بتفاهته وأنه أقل مرتبة من قطعة خشب ، وإذا ما أردت المقارنة فلعلنى أخبرك أن هذا كله لأنى محطم بائس ، مثل ذلك الطفل الذى سألنى اليوم إحسانا .

اغفرى لى يا فارنكا إذ اندفعت فى شىء من ضرب الأمثال والمواعظ ، ففى طريقى إلى الديوان فى الصباح الباكر يحدث أحياناً أن أتأمل المدينة ،

أتأمل الدخان وذلك الاضطراب والضجيج الذى يجعلنى أشعر بضآلتى ، وكأنما شخص ما قد أشعرنى بتطفلى ، وعندما يحدث هذا أثوب لنفسى وأمضى متواريا كفأر ، ولكن دعينا الآن نمعن النظر ونرى ماذا يحدث فى هذه المنازل الكبيرة المظلمة الجرداء ؟ . انظرى ثم احكمى : هل من الخير أن يتواضع المرء ويشعر بالكآبة بسبب هذا أولا ؟ . ولكن تذكرى يافارنكا أننى أقول هذا كله على سبيل المثال فحسب . والآن ماذا سنرى فى هذه المنازل ؟ . سنرى كيف يستيقظ عامل فى ركن صغير فى قاعة رطبة يسمونها شقة . ولعله من المحتمل أن يكون قد قضى ليلة يحلم بزوج من النعال أتلفه فى يومه السابق ، وتخيلى أن إنسانا يحلم يافارنكا بمثل هذه النفاية ، ولكن من الطبيعى أنه عامل — إسكافى — ولعل هذا عذره فى تفكيره الدائم فى مثل هذه الأمور ؟ . إن أطفاله ينتحبون وامرأته جوعى .

وليس الإسكافيون فحسب هم الذين يستيقظون فى الصباح ولا يملأ رءوسهم سوى مثل هذه الأشياء ياعزيزتى ، ولعل الموضوع كله لا يستحق الذكر لولا حال أخرى ، وفى هذا المنزل نفسه ، ففى الطابق الأعلى يعيش رجل غنى كان يحلم فى غرفته المذهبة خلال الليل كله بالنعال ، وطبيعى أنها ليست النعال نفسها ولكنها نعال على أية حال . وهكذا ترين ياعزيزتى ، أن كلنا إسكافى إلى حد ما !

ومع هذا أيضاً فليس الأمر خليقا بالتفكير ، لولا أن المشكلة هى

أنه لا يوجد من يهمس فى أذن الرجل الغنى أن يكف عن التفكير فى نفسه ، وأن يكف عن العيش لنفسه فحسب ، فهو ليس بالإسكافى ، وأطفاله فى أتم صحة ، وزوجته ليست جوعى ، لماذا إذن لا ينظر حوله ، ويجد شيئا نبيلا يشغل فكره به غير النعال ؟ .

وهذا هو ما قصدت أن أقوله لك عن طريق الأمثلة . ولعل هذا فكر حر متطرف يافارنكا ولكنه يخطر لى أحيانا ، وعندما يخطر لى يندفع من قلبى فى كلمات كثيرة . وهكذا ترين أنه ما من داع أن يمتهن المرء نفسه ويخشى كل هذا الاضطراب والضجيج . وختاماً أقول لك ياعزيزتى : لعلك تظنيننى أثرثر فحسب ، أو أننى متوعك المزاج فحسب ، أو لعلك تظنيننى نقلتها من كتاب أو نحوه . كلا يا عزيزتى ، إننى أؤكد لك أنه ما من شىء أحتقر مثل الثرثرة ، وإننى لست متوعك المزاج ، ولم أنقل شيئا من أى كتاب

لقد عدت إلى منزلى مكدود الخاطر ، ووضعت إبريق الشاى على الموقد ، وكنت على وشك أن أتناول قدحا من الشاى ، وفجأة دخل على جارى المسكين « جورشكوف » ، كنت قد لاحظت فى الصباح أنه كان يتسلل فى مشيته يتحاشانى ويتحاشى الآخرين . وأحب أن أذكر لك أن حياته أسوأ بكثير لدرجة لا يمكن أن تقارن بحياتى أنا ، وكيف يمكن أن تكون غير هذا — مع وجود زوجته وأطفاله ووجودهم جميعا .

والحق أنى لو كنت « جورشكوف » ما كنت أدرى ماذا أفعل حقا .

وهكذا دخل جورشكوف الغرفة وغض بصره ذليلا إلى الأرض كعادته ، ووقف هناك يلهث ، ولا يستطيع أن يفتح فاه بكلمة .

وقدمت إليه مقعدا ، مقعدا مكسورا ليس عندى غيره — وقدحا من الشاى ، وظل طويلا يعتذر عن قبوله ثم قبله أخيراً ، ولكنه رفض السكر وبدأ يعتذر مرة أخرى ، وعندما ألححت عليه بأن يأخذ السكر أخذ يرفضه ثم استقطع لنفسه أضأل قطعة وأكد لى أن الشاى حلو إلى درجة كبيرة . يا إلهى : إلى أى درك يهبط الفقر بالإنسان .

وسألته :

كيف حالك أيها الصديق ؟

فقال :

— شكراً ! ثم مضى يقول :

ألا تستطيع ياماكار أليكسيفتش أن ترينى رحمة الله وتساعد أسرة منكوبة ، فليس عندى ما تقتات به زوجتى واطفالى كما تعلم وأنا أبوهم أرقبهم عاجزاً .

وكنت على وشك أن أقول شيئا ما ، ولكنه قاطعنى قائلا :

— إنى أخشى كل ساكن هنا ياماكار أليكسيفتش ، بل الحق أنى أخجل أكثر مما أخشى محادثتهم ، فهم يضيقون بى وينعزلون عنى ،

وما كنت أفكر قط فى إزعاجك أيها الصديق المفضال فإنى أعلم أن عندك من المشكلات ما يكفيك ، وأنك لاتستطيع مساعدتى كثيراً ، ولكنى أرجوك أن تقرضنى شيئا ، ولم يكن من اليسير على نفسى أن أسعى إليك طالبا العون ، ولكنى أعلم أى قلب حنون ينطوى عليه صدرك ، وأعلم أيضا أنك فى عوز وحاجة مثلى ، لذا فستشعر بآلامى ونكباتى .

ثم أضاف إلى هذا الكثير من الاعتذار على تجرئه وطلبه منى . وأجبته بأنه لشد ما كان يسعدنى مساعدته ، ولكنى لا أملك شيئا أبدا فعاد يتوسل إلى .

... صديقى الحنون ماكار ، إننى لا أطلب الكثير ، وزوجتى وأطفالى يحتضرون جوعا ، ألا تستطيع إقراضى عشرة كوبكات فحسب . ؟

ومزق هذا قلبى . نعم . . فحال الرجل أسوأ من حالى . وكان كل ما أملك فى تلك اللحظة عشرين كوبكا كنت أحتفظ بها كى أواجه ضروريات الغد . فقلت :

— كلا ياصديقى . . الحق أننى لاأستطيع .

وشرحت له لماذا لاأستطيع . ولكنه عاد يقول :

— ولكن ياصديقي العزيز ما كار أليكسيفتش ، قل ماشئت ، وافعل ماشئت ، ولكن أعطني عشرة كوبكات على الأقل .

وأخذت القطعة ذات العشرة كوبكات التي أملكها وأعطيتها إياه إنهم ليعتبرون العشرين كوبكا إحسانا أو كذلك هي يافارنكا ؟ . . لعن الله الفقر .

وبدأنا نتحادث وسألته أخيرا كيف تأتى له أن يستأجر غرفة بخمس روبلات مع مايمر به من ظروف حرجة فأوضح لي أنه قد أقبل إلى هنا منذ ستة أشهر خلت وقد دفع إيجار أشهر ثلاثة مقدما ، ولكن الأمور قد تأزمت به حتى لايدري ماذا يفعل الآن ؟ وقد كان يأمل أن تكون قضيته المنكودة قد فصل فيها خلال تلك المدة ، فهو يتقاضى تاجراً اختلس من أموال الحكومة ، وعندما اكتشف الاختلاس حوكم التاجر ، ولكن الشرير جر « جورشكوف » معه على حين أن الواقع أن «جورشكوف» مذنب فحسب من حيث السهو وإهماله لمصالح الدولة . ولكن القضية ظلت تتنقل بين المحاكم سنين عدة « وجورشكوف » يواجه دائما عقبات جديدة ، إن جورشكوف يقول :

إني بريء من كل هذا العار الذي لحق بي — إني بريء من السرقة

او الاختلاس ، ولكن القضية كلفته سمعته ، فطرد ، وبالرغم من انه لم يحكم بجرمه ، لم يحكم ببراءته أيضاً . ولو كان قد حكم ببراءته لكان على ذلك التاجر أن يدفع له تعويضا — مبلغا ضخما من المال . . إنه يستحقه بحكم القانون . وأنا مستعد أن أصدق كلمة «جورشكوف» ، ولكن المحكمة لن تفعل ، فالموضوع معقد ملتو حتى إن قرنا من الزمان لن يكشف عنه ، فما يكاد التحقيق يحل عقدة حتى يخترع التاجر عقدة أخرى .

إنى لآسف ياعزيزتى من أجل «جورشكوف» ، وأحس بآلامه إحساساً عميقاً ، فهو عاطل بلا عمل فما من مخلوق يرضى باستخدامه بسبب ما أصاب سمعته ، وكل ما كان يملك قد بيع منذ أمد طويل ، وبينما كانت القضية تتعثر بين المحاكم ولد له طفل جديد . . فى غير وقته المناسب . وهذا يكلف بالطبع الكثير من المـــال ، وعندما مرض الطفل احتاج أيضاً إلى المزيد من المـال ، وعندما مات زادت الحاجة إلى المال . وزوجته مريضة وهو أيضاً يشكو من علة قديمة . وباختصار إنه يتعذب .

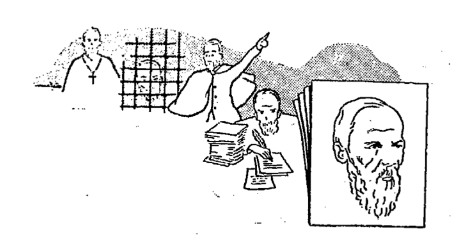
ولكن مهما كانت الحال فهو يزعم أنه ينتظر قرارا فى مصلحته يصدر خلال أيام قلائل ، وهو واثق من هذا . إنى جد آسف وحزين من أجله يافارنكا ، وقد حاولت جهدى أن أواسيه ، إنه رجل ضئيل

ضائع فى أمس حاجة إلى الحماية ، وقد واسيته ما استطعت .

إلى اللقاء ياحبيبتى ، وليكن المسيح معك ويحفظك فى أتم صحة . فارنكا .. ياحياتى : إن التفكير فيك شفاء لروحى ، والعذاب من أجلك عزاء . .

صديقك المخلص

ماكار دوفشكين



٩ من سبتمبر

فارفارا أليكسيفنا يا عزيزتي

أكاد أفقد صوابي ، فثمة شيء فظيع قد حدث ، رأسي يدور بي ، وكل شيء حولي يدور أيضا ، ولن تتوقعي أبدا ما سأفضي به إليك ، فما تخيلنا قط شيئا مثل هذا ، ولكني قد تخيلته أنا وتوقعته ، كان قلبي يشعر به . بل رأيت حلما يشبه ذلك الخوف حدث .

وإليك ماحدث وسأصفه لك دون زخرف أو تنميق ، سأصفه لك كما تجري به ريشتي فحسب .

ذهبت إلى مكتبي هذا الصباح كالمعتاد ، واتخذت مجلسي إلى المكتب وبدأت أكتب ، وهنا يجب أن أذكر يا عزيزتي أنني فعلت الشيء نفسه بالأمس عندما أقبل علي تيموفاى إليانوفتش شخصياً ، وقال : إن عنده ورقة يجب أن تنسخ على الفور ، ثم قال :

— أرجو أن تنسخها بأنظف وأسرع ما يمكنك ؛ فسيوقعها سعادته اليوم :

ويجب أن أذكر كذلك ياعزيزتي أنى بالأمس لم أكن استطيع استجماع أشتات نفسى ، كنت وحيدا حزيناً ، كان قلبى مكدودا كئيباً وكنت جد قلق عليك ياعزيزتى . وبدأت عملى ، ونسخت الوثيقة نسخا دقيقاً جيداً ، ولكنى لست أدرى أمن عمل الشيطان هو أم من إرادة السماء أم بمجرد أنه كان لابد أن يحدث : لقد نسيت سطراً ، ويعلم الله وحده كيف غير هذا السطر المعنى : إذ لم يبق للوثيقة معنى على الإطلاق . ولم يتسع وقتهم لهذه الوثيقة بالأمس فوقعها سعادته اليوم .

وأقبلت إلى مكتبى اليوم وأنا لا أدرى شيئا واتخذت مجلسى إلى جانب يميليان إيفانوفتش ، وهنا يجب أن أذكر أيضاً أنى قد بت منذ مدة أكثر خزياً وخجلا ، ولم أحاول قط أن أنظر إلى وجوه الناس بل إن صرير كرسى كاف لأن يثير وجلى ، واليوم أيضاً قد تضاءلت حتى بت كالسلحفاة تدخل رأسها فى جسمها وأنا أقرب إلى الموتى منى إلى الأحياء . حتى إن يفيم اكيموفتش (وهو أكثر خلق الله مجونا) قال بصوت عال يسمعه الجميع : « لماذا تجلس هكذا ياماكار اليكسيفتش مثل . . . ؟ »

وهنا قلب سحنته على صورة انفجروا معها جميعا ضاحكين ، وكان

من الطبيعي أن يعيدوا الكرة ، ولكني أغمضت عيني وسددت أذني وتظاهرت بأني لا أسمع ولا أرى . فهذه الطريقة المثلى كي يتركوني وشأني .

وفجأة سمعت ضجة تتناهى إلى من بعيد ، ثم سمعت اسمي يذكر — ولم أستطع أن أصدق أذني .. ولكن كان اسمي أنا . نعم دوفشكين هو من ينادون . . فاشتد وجيب قلبي — ولست أدري لم تملكني الفزع فزع لم يتملكني في حياتي قط من قبل . وتسمرت في مقعدي لا أريم حراكا — كما لو أنه لم يكن أنا ذلك الذي ينادون . والأصوات تقترب وتقترب حتى صارت لصق أذني .

— دوفشكين ! دوفشكين ! أين دوفشكين ؟ ونظرت فإذا بيفستافي إيفانوفتش واقف يقول :

— إن سعادته يطلبك يا ماكار إليكسيفتش ، فلقد أفسدت تلك الوثيقة .

كان هذا كل شيء . . ولكن كان يكفيني ما سمعت : ألم يكن كذلك ؟ وسرت البرودة إلى أطرافي وكدت أفقد وعيي ، ولست أدري كيف نهضت ومشيت بل لست أستطيع القول أي شيء جال بخاطري في تلك اللحظة ، كل ما أذكره أني اخترقت غرفة ثم أخرى ثم ثالثة إلى المكتب الخاص حيث وقفت وجها لوجه أمام سعادته وحوله الآخرون .

وأخشى أن أكون قد نسيت أن أنحنى . ووقفت هناك ترتعش شفتاى وتصطك ركبتاى ، وكان ثمة ما يدعو إلى هذا : فأولا تصادف أن حانت منى نظرة إلى المرآة على يمينى وما رأيته فيها كان يكفى كى يدفع بأى إنسان إلى الجنون ، وثانيا أننى سلكت دائماً كأنى لم أوجد قط ، فكيف يجب أن يعرف سموه أننى أعيش على الإطلاق ؛ لعله قد سمع من يذكر اسم دوفشكين فى الوزارة ، ولكنه لم يكلف نفسه عناء معرفته قط .

وبدأ حديثه غاضباً :

ـــ ما معنى هذا أيها السيد ؟ ولماذا لا تبذل المزيد من العناية ؟ كانت وثيقة عاجلة ولقد أفسدتها . .

والتفت سعادته الآن إلى بفستافى إيفانوفتش ، والتقطت أذناى لمحات مما كان يقول فحسب : « مثل هذا الإهمال . . متاعب كثيرة . . . » وفتحت فاى عدة مرات كى أعتذر ، ولكن لم أنطق حرفا ، ووددت لو أهرب ولكنى لم أجرؤ ، وعندئذ حدث أسوأ الأمور كلها : شىء مروع يا حبيبتى حتى لترتعد ريشتى فى يدى خزياً وأنا أكتبها . ومن أزرار معطفى لعنه الله ، زر كان يتعلق بخيط واحد سقط فجأة ، وأخذ يقفز ، ويرقص ، ويتدحرج حتى وصل إلى قدم سعادته ، وحدث هذا وسط السكون الشامل . هذا ما حدث بدلا من اعتذارى ، كان هذا ردى الوحيد على سعادته .

أما ما تبع هذا فإنه لأبشع مما يوصف ، فقد أدار سعادته بصره إلى يتفحصني ويتأمل تفاصيل شكلي وملبسي ، وتذكرت ما رأيته في المرآة ثم خطوت أقتنص ذلك الزر ولست أدرى ماذا تملكني حتى أفعل هذا ؟ . ومددت يدى ألتقطه ولكن اللعين ظل يدور ويتدحرج .

وهكذا ترين أنى أظهرت نفسى بمظهر الغبي المأفون ، وشعرت أننى أفقد وعيي ، فلقد ضاع كل شيء : سمعتى وكل شيء ضاعت دون أمل فى استردادها ، وبينما أنا فى هذه الحال من الاضطراب أخذ تدوى فى أذنى صرخات تريزاوفالدونى وأقاويل آلاف الألسن .

وأخيراً تغلبت على الزر واقتنصته ونهضت واقفاً ، وكان من الواجب أن أقف ساكناً تماماً ويداى إلى جانبي ، ولكن كلا ، لقد رحت أعبث بهذا الزر ، فأدفع فيه الخيط الواهى كأنما يمكن أن يعود فيلتصق به ، وكنت ابتسم طيلة هذا كله ، نعم كنت ابتسم فحسب ، وأشاح سعادته بوجهه منى ثم وقعنى بنظرة أخرى ، وقال ليفستافى إيفانوفتش :

— مامعنى هذا ؟ أنظر إلى الرجل ، ماذا به ؟

وأجابه ليفستافى .

— إن سجله نظيف تماماً ، ومسلكه مثالى ، ومرتبه وفق القانون

وقال سعادته :

— ساعدوه بأية طريقة ، امنحوه جزءاً من مرتبه مقدماً .

ـــ ولكنه سحب فعلا مرتبه لشهور قادمة . ولابد أن الظروف قد أدت به إلى أن يفعل هـــذا مادام سلوكه ممتازا وملف خدمته نظيفاً ولا شيء ضده .

وكان الدم يتدفق إلى وجهى ياعزيزتى حتى لكأنى كنت أحترق فى نيران .

وقال سعادته بصوت عال حتى لقد سمعته :

ـــ حسناً فلتنسخ هذه الوثيقة من جديد وبأسرع مايمكن ، تعال هنا يادوفشكين ، إنسخ هذه الورقة دون أن تخطىء .. واسمع ..

وهنا أمر سعادته الآخرين بالخروج ولم يبق سواى وهو ، وأسرع فأخرج حافظة نقودة من جيبه ، وأخرج منها ورقة بنكنوت من فئة مائة الروبل ، ودسها فى يدى وقال :

ـــ اليك بها .. اعتبرها قرضاً إذا أردت ، وإنى لأحب أن أفعل شيئاً من أجلك .

وذهلت ياملاكى حتى لم أستطع نطقاً ، وأنا لا أكاد أدرى ماذا كان يجرى ، وهممت أن أقبل يده ، ولكنه تضرج خجلا ، وحينئذ ـــ ولست أبالغ قط يا فارنكا ـــ أمسك بيدى ـــ بدى أنا ـــ وشد عليها كأنى له ندا . وقال :

— إمض الآن أيها الصديق — متأسف أنى لا أستطيع أن أفعل شيئاً أكثر من هذا ، واحذر الأخطاء وسنشترك معاً فى تحمل اللوم على ماحدث .

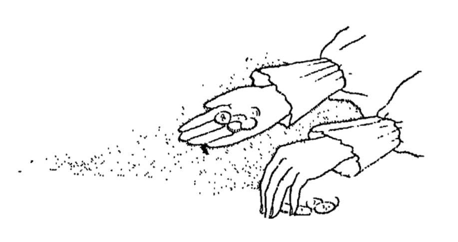
وإليك الآن ماأطلبه منك أنت وفيدورا أرجو أن تصلوا من أجل سعادته كل يوم ، ولو كان لى أبناء لطلبت منهم أيضاً أن يصلوا لسعادته أكثر مما يفعلون من أجل والدهم . وسأقول هـــذا أيضاً ياحياتى .. سأقوله جاداً من كل أعماق . إنه مايعنينى كم قاسيت .. وإذا ماغضضت الطرف عما شعرت به من عذاب بسببك فى أسود أيام عوزنا عندما كنت أنظر اليك فيمنعنى عجزى عن مساعدتك .. أقول بالرغم عن كل هذا وأقسم لك أن هذه الروبلات المائة ليست بالعزيزة إلى قلبى قدر تلك الحقيقة : أن سعادته قد صافحنى ، شد على يد بسكير زرى المنظر . لقد أعاد إلى رجولتى وروحى وأضاء حياتى . وأنا واثق تماما أن صلواتى من أجل سعادته ستستجاب بالرغم من أنى رجل ذو خطايا .

إننى فى أشـــد الاضطراب والذهول يافارنكا ، وقلبى يكاد يقفز خارج صدرى ، وأحس بضعف شديد ، أبعث اليك خمسة وأربعين روبلا ، وسأعطى ربة دارى عشرين روبلا فيبقى معى خمسة وثلاثون ، وسأصلح ثيابى بعشرين منها ويبقى لى بعد ذلك خمسة عشر روبلا أواجه بها النفقات الأخرى .

لقد قلبت انفعالات الصباح كيانى كله ، ولعله من الأفضل أن آوى إلى فراشي وإن كنت مع هـذا سعيداً هادىء البال اللهم إلا أن روحى تتعذب ولست أدرى لماذا ، وأكاد أسمعها ترتعش وتضطرب فى أعماقى؟ سأزورك فيما بعد فإنى الآن مضطرب بعد كل هذه الأحداث . إن الله يرى كل شيء ، ويسمع كل شيء ياحبيبتى ، يافتاتى الصغيرة الغالية .

صديقك

ماكار دوفشكين



١٠ من سبتمبر

عزيزى ماكار

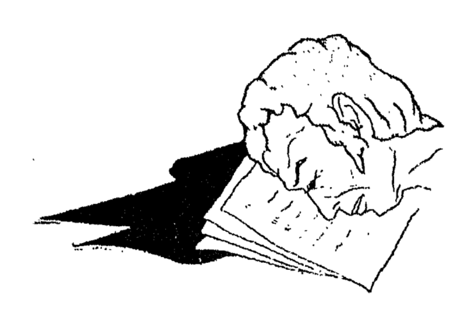
أسعدنى أن أسمع بحظك السعيد ، وإنى لأقدر تماما عطف رئيسك وطيبته ، وقد آن لك أن تستريح من همومك ، ولكنى أستحلفك بالله ألا تبعثر نقودك ، وعش فى هدوء وتواضع قدر ماتستطيع ،وابدأ بأن تدخر شيئاً ضئيلا كل يوم حتى إذا ما حلت النكبات وجدتك متأهبا لها.

أرجو ألا تحمل عنا هماً فسنتدبر أمورنا أنا وفيدورا بأية طريقة ولماذا أرسلت إلينا الكثير من المال يا ماكار أليكسيفتش ؟ .. الواقع أننا لانحتاج إلى الكثير من المال .. ونحن قانعتان بما عندنا ، صحيح أننا سنحتاج إلى المال كى ننتقل من هذا المكان ولكن فيدورا تتوقع أن تسترد دينا قديما لها ،إنى احتفظ بعشرين روبلا للطوارىء وأرسل إليك الباقى ، فاقتصد فى نقودك ياماكار .

إلى اللقاء ولتسترح من همومك ، ولتحافظ على روحك المعنوية

العالية وقد كنت أحب أن أسترسل إلى الكتابة لولا مابي من تعب. بالأمس لازمت فراشي وأنا سعيدة لأنك وعدت أن تزورني، وأرجوك أن تفعل.

ف . د



١١ من سبتمبر

فارفارا أليكسيفنا ، يا حبيبتى

أرجوك ألا تذهبى بعيدة عنى على حين أنى جد قانع وسعيد ، ولا تصغى لفيدورا ياعزيزتى ، وسأفعل كل ما تطلبين منى أن أفعله . وسأسلك سلوكا لائقا ، احتراما لسعادته على الأقل . وسنعود مرة أخرى إلى تبادل الخطابات السعيدة كما تعودنا من قبل ، سنشترك فى الأفراح والمتاعب إذا كان ثمة متاعب ، وسنعيش فى وئام وسلام ، وسنعود إلى الأدب مرة أخرى إذ تغير كل شىء فى حياتى إلى أفضل يا فارنكا : قربة الدار قد زاد ودها نحوى ، وأضحت تريزا أكثر ذكاء ، ونالدونى أكثر طاعة ، وقد اصطلحت أنا وراتازيف . كنت جد سعيد حتى إننى ذهبت أسترضيه بنفسى ، إنه شخص طيب القلب ياعزيزتى ، وكل ما يقوله الناس عنه من شر مجرد اختلاق ، فهو لم يقصد قط أن يصفنا فى كتاب ، وقد

صرح لى بهذا ، وقرأ لى بعض كتاباته الجديدة ، أما عن نعته إياى بزير نساء فقد وضح لى أنها ليست إهانة فى الواقع ، إنما هى كلمة مستعارة من لغة أجنبية ، ولا تعنى إلا شخصا حاذقا ، وإذا أردنا أن نشرحها بطريقة أكثر أناقة وأن نضفى عليها طابع الكتب فإنها تعنى كما لو قلنا « سيد مهذب لبق » . وهكذا ترين يا عزيزتى أنها لم تكن سوى فكاهة بريئة أسأت أنا الجهول فهمها . وقد اعتذرت إليه .

وكان الجو أيضاً جميلا ، فقد جعله رذاذ المطر والضباب الخفيف فى الصباح منعشاً فحسب .

لقد اشتريت زوجاً جميلا من الأحذية ، وخرجت أتنزه فى نفسكى ، ووقفت أقرأ الصحف . يا إلهى ! لقــــد نسيت أن أخبرك بالموضوع الرئيسى : فلقد اشتركت هذا الصباح فى نقاش حول سعادته مع عميليان إيفانوفتش وآكسنتى ميخايلوفتش ، فوجدت أننى لست وحدى الذى غمره بعطفه ؛ فالمعروف عن سعادته أن له قلباً عطوفاً : وقد امتدحه الكثيرون ، وبكى الكثيرون عرفانا بجميله . ويقال : إنه تبنى يوماً فتاة يتيمة ورباها ، ثم زوجها رجلا ذا مركز محترم كان على صلة خاصة بسعادته .

ومعروف أيضاً أنه سعى إلى إيجاد عمــــل لابن أرملة ، وأنه قام بالكثير من أعمال الخير .

وشعرت أن من واجبى أن أضيف شيئا إلى هذا كله ، ورويت قصتى للجميع ، رويتها دون أن أكتم منها شيئاً ، ولكنى مارويت خجلى فحسب

غير أنه كيف يمكن أن يقال أى حديث عن الخجل فى مثل هذه الظروف ألا فلتعلن أعمال الخير التى يقوم بها سعادته ولتمتدح حتى يعرفها الجميع .

وكنت أتحدث بحرارة ، وجرفنى شعورى حتى نسيت خجلى ، بل لقد كنت فخورا وأنا أروى شيئا مثل هذا . وقصصت عليهم كل شيء [ولكنى طبعاً لم أذكر عنك شيئاً] ، رويت لهم كل شيء عن ربة دارى وعن « فالدونى » وعن « راتازييف » ، وعن نعالى وعن ماركوف ، وباختصار حدثتهم بكل شيء .

وضحك بعضهم — أو على الأصح ضحكوا جميعا ، ولعله كان بهيئتى أو بحذائى ما يثير الضحك ، نعم إنى متيقن الآن أن حديثى عن الأحذية هو الذى أثار ضحكهم ، فهم شباب وحالهم متيسرة ، ولكنهم ليسوا أشرارا قط ولا يقصدون سوءاً ، ولكن كيف يستطيعون أن يضحكوا عند الحديث عن سعادته ؟ أتراهم يستطيعون يافارنكا . . ؟

إنى لازلت مضطربا ياحياتى فقد أذهلتنى الحوادث . ألديك مايكفى من الخشب ؟ اعتنى بنفسك يافارنكا واحذرى البرد . آه ياحبيبتى العزيزة إن أفكارك الكئيبة تؤلمنى كثيراً فأظل أضرع إلى الله من أجلك . وهل عندك جوارب صوفية أو ثياب تدفئك ؟ اعطفى على رجل عجوز وأخبريه إذا احتجت إلى أى شيء ، يكفى مجرد تلميح منك ، فقد مضت الأيام السود ، والمستقبل يبشر بكل خير .

إنها أيام حزينة تلك التى قاسيناها يافارنكا ، ولكنها مضت إلى غير رجعة ، وإذا ما مضت السنون لم تعد غير ذكرى . إنى لأذكر أيام شبابى . ففى تلك الأيام كانت تمر بى ظروف وليس فى جيبى ولا كوبك واحد ، ولكنى كنت سعيداً على الرغم من هذا كله ، ففى تلك الأيام كان يكفى أن أرى وجهاً جميلا فى الصباح فى « نفسكى » حتى أظل سعيدا طيلة يومى . هكذا كانت أيام شبابى .

إنه لممتع أن يعيش المرء ، وفى بطرسبرج بالذات يافارنكا . وبالأمس صليت لله والدموع فى عينى ، وتوسلت إليه أن يغفر لى آثامى التى اقترفتها خلال متاعبنا وأن يغفر لى الشكوى وما خطر لى من أفكار حرة وانغماس فى الخطيئة ، وفكرت فيك خلال صلواتى فلأنى الحنان والشكر ، فأنت التى آزرتنى فى محنتى ، وأنت التى واسيتنى ومنحتنى النصح والإرشاد . وان أنسى هذا أبداً يا حياتى .

لقد قبلت اليوم خطاباتك جميعا — خطابا خطابا ياعزيزتى .

إلى اللقاء ياحبيبتى فارنكا فلقد بلغنى أن هناك من يبيع معطفاً للعمل وربما كان من الواجب أن أستعلم عنه . إلى اللقاء يا ملاكى الصغير . . إلى اللقاء . .

المخلص

ماكار دوفشكين



١٥ من سبتمبر

عزيزى ماكار اليكسيفتش.

. . . إننى مضطربة أشد اضطراب وإننى لأتوقع أسوأ الأمور وإليك ماحدث ، واحكم أنت بنفسك : إن مستر بايكوف فى بطرسبرج وقد التقت به فيدورا ، كان يركب عربته ، ولكنه نزل منها عندما رأى فيدورا ، ودنا منها وسألها عن مقامها الآن ، وعندما رفضت فيدورا أن تخبره ضحك ضحكة قصيرة وقال : إنه يعرف جيدا من يعيش معها (ولا بد أن آنا فيدروفنا قد أنبأته بهذا) ولم تستطع فيدورا أن تتمالك نفسها ، وبدأت توبخه وتسبه ، قائلة : إنه رجل منحط وأنه سبب شقائى ، فأجابها :

إنه لابد أن أكون شقية حقا مادمت لا أملك كوبكا واحدة ، وعندئذ أخبرته فيدورا أننى كنت أستطيع أن أعمل فأكتسب قوتى أو أتزوج شخصا ما أو أجد لنفسى وظيفة ، ولكنى مريضة بفضله

وأكاد أشرف على الموت . وأجابها على هذا : بأنى لازلت شابة قوية وأن كرامتى قد تلطخت أيضا ، (هذه هى عباراته بالضبط) .

وظننت أنا وفيدورا أنه لا يعرف أين نقيم ، ولكن بالأمس عندما خرجت أشترى بعض ما أريد « جوستنى دوور » ، اقتحم غرفتنا فجأة .

ويبدو أنه تعمد أن يأتى عندما أكون خارج الدار ، وعندئذ أخذ يمطر فيدورا بالأسئلة عنى وعن حياتى ، وجعل يفحص كل شىء فى الغرفة حتى تطريزى أيضا ، ثم سألها أخيرا : من ذلك الكاتب الذى نتصل بكم كثيرا ؟

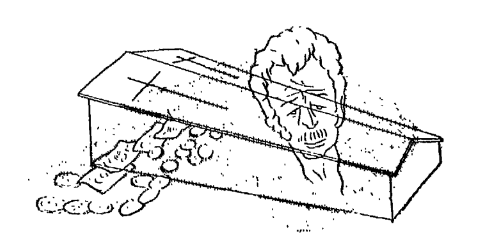
واتفق مرورك فى هذه اللحظة عبر الفناء فأشارت فيدورا إليك ، فنظر إليك وابتسم ، وطلبت منه أن ينصرف قائلة : إننى مريضة بسبب مشكلاتى . وإن رؤيته . قد تسىء إلى كثيرا ، ولم يجبها إلى هذا ، بل قال : إنه جاء للزيارة فحسب ، ثم عرض خمسة وعشرين روبلا على فيدورا ، فرفضتها طبعا .

فما معنى هذا كله ؟ ولماذا أتى ؟ وكيف استطاع أن يعرف كل شىء عنا ؟ إننى ضائعة وسط أفكارى ، وفيدورا تقول لى : إن آكسينا زوجة شقيقها التى تأتى لزيارتنا أحيانا تعرف ناستاسيا الغسالة ، وابن عم نستاسيا يعمل خفيرا فى الوزارة التى يعمل فيها أصدقاء آنا فيدروفنا ،

وهذا هو بلا شك ما أتاح لآنا فيدروفنا أن تعرف شيئا عنا . وقد تكون فيدورا مخطئة .

إننا لانعرف ماذا نفعل : هل سيأتى مرة أخرى ، إننى لأفزع لمجرد التفكير فى هذا ، وعندما أخبرتنى فيدورا بكل هذا بالأمس كاد يغمى على . أى شىء آخر يريده منى ؟ إننى أرفض أن أراهم مرة أخرى . ولماذا يتعقب فتاة مسكينة مثلى ؟ إننى فى خوف دائم . ماذا لو عاد بيكوف فى هذه اللحظة ؟ ماذا يخبئه لى القـــدر ؟ . تعال لرؤيتى فورا يا ماكار اليكسيفتش . أرجوك أن تأتى حالا ، أستحلفك بالله أن تفعل .

ف . و



١٨ من سبتمبر

عزيزتي فارفارا

وقع فى منزلنا اليوم حادث لم يكن منتظرا ، ولا يمكن تفسيره ، فقد أنصف القضاء « جورشكوف » المسكين ، وظهرت براءته التامة ، وقد وقع القرار منذ فترة طويلة ، وذهب اليوم ليستمع إلى الحكم النهائى ، فانقلبت القضية لمصلحته ، ومهما كان خطؤه فى الإهمال فقد تم الصفح عنه ، وحكم له بتعويض كبير لقاء ما أصابه من ضرر ، وهكذا تحسنت أحواله ، واسترد سمعته وشرفه .

وباختصار تحسن كل شىء وتحققت أقصى أمانيه . وعاد فى الثالثة بعد الظهر شاحباً كالشبح ، مختلج الشفتين ، وقد ارتسمت عليهما رغم هذا كله ابتسامة ، فعانق زوجته وأولاده ، وهرعنا إليه جميعا نهنئه ، وكان بادى التأثر ينحنى باستمرار ؛ ويشد على يد كل واحد منا عدة مرات . وبدا كأنما قد ازداد طولا واستقام ظهره ، وذهبت عنه الدموع التى طالما ملأت عينيه .

كم كان مضطرباً ، ذلك المسكين . ولم يستطع أن يقف ساكناً لحظة واحدة ، فأخذ يلتقط أشياء ثم يضعها مكانها ، وهو يبتسم وينحنى ؛ ويجلس وينهض ، ويقول أى شيء يثب إلى ذهنه ، أى كلمات عن شرفه وسمعته وأطفاله . ثم بكى ؛ وبكى معظمنا أيضا . وأراد « راتازيف » أن يسرى عنه ، فقال :

— « ما قيمة الشرف أيها الصديق إذا لم نجد ما نأكله ؟ المال هو ماله قيمة ، وهو ما يجب أن تسعد به »

ثم ربت على كتفه ، وبدا لى أن « جورشكوف » قد أهين بهذا القول وإن لم يعبر عن ضيقه مباشرة ، ولكنه سدد نظرة غريبة إلى راتازيف ثم نحى يده من على كتفه . وما كان ليفعل شيئاً مثل هذا قط من قبل . وطبيعى أن الشخصيات تختلف يافارنكا : فأنا مثلا ما كنت أزهو إلى هذا الحد فى يوم بهيج مثل هذا ، فثمة أوقات ينحنى المرء فيها أكثر من مرة ، بل يتواضع لا لسبب إلا لمجرد الإفراط فى الشعور الطيب ورقة القلب ، ولكن لماذا أتحدث عن نفسى ؟ .

وقال « جورشكوف »

— « أجل ، إن المال شيء لا بأس به أيضا : شكراً لله عليه .

ثم أخذ يردد قوله « شكراً لله عليه »

وطلبت زوجه غذاء ممتازا غالياً أعدته ربة الدار بنفسها . وهى امرأة طيبة القلب ؛ ولكن على طريقتها الخاصة .

غير أن « جورشكوف » لم ينتظر الغذاء ، بل ظل قلقا حائرا ، وأخذ يزور كل الغرف سواء دعى أم لم يدع ، فهو يدخل الغرفة، ويبتسم ثم يجلس ويقول شيئاً ما ، أو ربما لا يقول شيئا على الإطلاق ثم ينهض خارجاً . . وفى حجرة الضابط البحرى دعى إلى المشاركة فى اللعب ، وكانت النتيجة أنه أفسد عليهم لعبتهم ، ثم تركهم قائلا : لقد أحببت أن ألعب قليلا فحسب .

وعندما قابلنى فى الدهليز نظر إلى عينى ولكن بطريقة غريبة جدا ، ثم شد على يدى مصـــافحاً مرة أخرى ، ثم تركنى ومضى وهو لا يزال يبتسم ولكن بطريقة غريبة أيضا ـــ ابتسامة مفتعلة لا حياة فيها .

وكانت زوجه تبكى فرحاً وبدا كل شىء فى غرفتهم وكأنه يحتفل بهذه المناسبة ، وبعد الغذاء قال لزوجه : أظننى سأستريح قليلا ، ثم استلقى على فراشه ، وأخذ يداعب شعرها ، ثم التفت إلى زوجه وسألها .

ـــ أين ابننا باتنكا الآن ؟ .

ورسمت زوجته علامة الصليب على الفور ، وذكرته بأن « باتنكا » قد مات ، فوافق على حديثها قائلا

ـــ نعم . . إن باتنكا فى السماء .

ورأت زوجه أنه ليس فى حاله الطبيعية ، وأن المفاجأة قد أفقدته اتزانه . فأخذت تلح عليه أن ينام . فقـــال . . سأفعل هذا . . سأنام قليلا . .

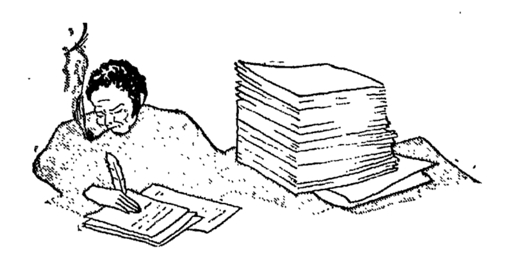
ونام على جنبه ورقد ساكنا فترة ، ثم أدار رأسه كأنما يريد الحديث. ولم تفهم زوجته شيئاً فسألته عما قال ولكنه لم يجبها ، واعتقدت أنه نام فمضت لزيارة ربة الدار ، ومكثت عندها نحو ساعة . ولما عادت وجدته لايزال نائماً ، فجلست إلى شأن من شئونها شغلها لنصف ساعة نسيت فيها كل شيء عنه . ولكن شيئاً ما جعلها تقفز خوفا ، هو ذلك الصمت القاتل . فنظرت إلى السرير ، ورأت أن زوجها لم يتحرك عن موضعه ولما اقتربت منه وجدته ميتاً ! — لقد مات جورشكوف المسكين ميتة مباغتة وكأنما مسته صاعقة ولا يعرف أحد لماذا ؟

إننى مضطرب حائر لا أكاد أثوب لنفسى . كيف يمكن أن يموت إنسان بهذه الصورة ؟

ياله من مسكين هذا الرجل « جورشكوف » ، أى حياة بائسة عاشها . . أى حياة ! لقد أخذت زوجه تبكى مذعورة على حين انزوت طفلته فى ركن من الغرفة . . ثم أعقب ذلك صراخ وعويل .

لقد سمعتهم يقولون : إن هناك حياة أخرى بعد الموت ، وأنا حزين وآسف إلى درجة لايبلغ مداها التعبير ، فمن منا يستطيع أن يعرف متى تحين ساعته . فنحن هنا اليوم . . وغداً نمضى ! . المخلص

ماكار دوفشكين



١٩ من سبتمبر

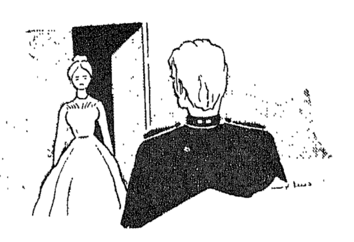
أعز أعزائى فارفار أليكسيفنا

أبادر فأنبئك أن « راتازيف » قد وجد لى عملا مع مؤلف ، وكان « راتازيف » قد أتى إلى يحمل مخطوطاً سميكا ، . . . هــذا عمل كثير والحمد لله ، وخط هذا المؤلف ردىء لسوء الحظ . . . ، ولست أدرى كيف سأتمكن من نسخه ولابد من الانتهاء منه بسرعة على حين أنه قد كتبه بطريقة غريبة حتى لا يستطيع المرء أن يفهم النص المكتوب . وقد اتفقنا على أن يدفع أربعين كوبكاً عن كل صفحة أنقلها

إننى أكتب إليك هذا كى أنبئك أننى سأحصل على المزيد من المال . وداعاً يا حبيبتى فعلى أن أبدأ العمل الآن .

صديقك المخلص

ماكار



٢٣ من سبتمبر

صديقى العزيز ماكار ألبكسيفتش

لم أكتب إليك خلال تلك الأيام الثلاثة، ولكنى عانيت فيها مشكلات وهموماً كثيرة. فأمس الأول عاد « بايكوف » لزيارتى، وكنت بمفردى إذ كانت فيدورا قد ذهبت إلى مكان ما وعندما فتحت الباب ذعرت أنى لم أستطع حراكا، ولابد أن وجهى قد شحب شحوباً شديداً ودخل وهو يضحك ضحكته العالية المعهودة واتخذ مقعدا، وجلس. وأخيرا استعدت أنا رباطة جأشى، وجلست إلى عملى فى ركن من الغرفـــة، وسرعان ما ذبلت ابتسامته عندما تفحصنى بنظره، فرأى مقدار هزالى، وكيف غارت وجنتاى وعيناى، ولابد أنى كنت شاحبة بيضاء كصفحة من ورق. ولعله يتعذر على من رآنى منذ عام مضى أن يتعرف على اليوم وجلس هو صامتاً يمعن فى النظر ثم عاد إليه مرحه، وقال شيئا ما ولا أذكر ما أجبت به وعاد إلى ضحكه وقضى هنا ساعة كاملة، يتحدث ويسألنى أسئلة، ولما هم بالانصراف، تناول يدى، ثم قال [وإنى أنقل إليك كلماته بالضبط] . .

ــ أصرح بالحق يا فارفارا أليكسيفنا ان آنا فيدورفنا هذه ــ قريبتك وأصدق معارفى ــ مخلوق شرير .

ثم اضاف إلى هذا كلمة بذيئة ، ومضى يقول

ــ لقد اودت بابنة عمتك ساشاه إلى الضلال ، وحطمت حياتك انت ايضا . . اما انا فقد سلكت كأى نذل ، ولعله ضعف مشترك فى كل الرجال . .

وضحك بأعلى صوته ، ثم قال : إنه ليس ممن يجيدون الحديث وإن كان قد قال أهم مايريد فإن الشيء الذى اضطره إلى الحديث ،إنما هو إحساسه بالشرف وإن كان ينوى اختصار حديثه . ثم اخذ يقول : إنه يطلب يدى ، وإنه يعتبر أن من واجبه أن يعيد إلى شرفى ، وإنه رجل غنى وإنه سيمضى بى بعد زواجنا إلى بلدته فى الاستيبس حيث ينوى صيد الأرانب البرية . وإنه لن يأتى أبدا بطرسبرج فهى مدينة قذرة ، وله فيها ابن اخت سيء الخلق ، وقد أقسم أن يمنع عنه اى نقود وإن هذا هو سبب زواجه . إنه يريد وريثاً من صلبه . ثم بدأ يتحدث عن معيشتى . فأنا أعيش معيشة بائسة ، ولا عجب من مرضى وهزالى مادمت أعيش فى حفرة مثل هذه ، وتكهن بموتى الوشيك لو أننى قضيت هنا شهراً آخر ، ثم أضاف ان المساكن فى بطرسبرج قذرة وسألنى .هل هناك ما احتاج إليه ؟ وقد هز كيانى هذا العرض المفاجيء حتى إننى بكيت ،

ولست أدرى لماذا ؟ . وأساء هو فهم دموعى ؛ إذ ظنها تعبيراً عن عرفانى بجميله ، فأعلن أنه كان واثقا على الدوام أننى فتاة طيبة حساسة متعلمة ، ومع هذا فقد تردد فى اتخاذ هذه الخطوة حتى قام بتحرياته الدقيقة عنى ، ثم سألنى عدة أسئلة عنك وأضاف أنه قد بلغه أنك رجل شريف وأنه لا يحب من جانبه أن يشعر أنه مدين لك ، فهل تكفى خمسمائة روبل لتعويضك عن كل شىء قمت به من أجلى ، فلما وضحت له أن ما قمت به من أجلى لا يقدر بمال غضب ، وقال : إن كل هذا لغو فارغ ، وأحاديث روايات كما سماها ، وأضاف قائلا . إننى لا زلت صغيرة ولا شك ، اننى مغرمة بقراءة الشعر ، وإن القصص والشعر كانا دائما سببا فى فى انحلال خلق الشابات ، وإن الكتب بصفة عامة قد افسدت الأخلاق لذا فهو يحتقرها ، ولو كنت قد بلغت من العمر ما بلغ هو لاستطعت ان أحكم على الناس أصوب مما أستطيع الآن ، وعندما أبلغ عمره سأعرف حينئذ فحسب حقيقة الناس . ثم ألح على أن أمعن الفكر فى اقتراحه ، فليس من الخير أن أتخذ خطوة مثل هذه دون تفكير وروية ، فالاندفاع وقلة التبصر هما على الدوام رذائل الشباب ، وطبيعى أنه يتلهف على موافقتنى وإلا فسيضطر إلى الزواج من ابنة تاجر فى موسكو ، لأنه قد أقسم أن يحرم ابن اخته العاق الميراث ، ثم ترك خمسمائة روبل على إطار تطريزى على كره منى كى أشترى بعض الحلوى كما قال . ثم اكد لى أننى إذا ما مضيت معه إلى الريف فسأصبح سمينة وأعيش على خير

الأرض ، وهو جد مشغول فى الوقت الحالى وقد أنهك نفسه طيلة اليوم ، لهذا لقد استأذن منى منصرفا .

ياصديقى العزيز . لقد فكرت كثيرا فى كل هذا ، وقاسيت كثيرا ولكنى اتخذت قرارى آخر الأمر : سأتزوج هذا الرجل ، يجب ان أوافق على عرضه ، فإذا كان فى استطاعة مخلوق أن يخلصنى من عارى ، ويعيد إلى شرفى وسمعتى ويجنبنى مذلة الفاقة والصعاب والنكبات فإنه هو هذا الرجل لا غيره . وماذا أتوقع من المستقبل ؟ وماذ أتوقع من القدر ؟

إن فيدورا تقول: إن على الإنسان ألا يفقد فرصة للسعادة وإذا لم تكن هذه هى السعادة فما هى ؟ أما عن نفسى ياصديقى فلا أرى سوى هذا الطريق أمامى فأنا أعمل كثيرا حتى تدهورت صحتى ، هل أعمل إذن خادمة أو مربية أو تقتلنى الوحدة حتى لا أكون ذات نفع ، وقد ولدت ضعيفة البنية وكنت دائما عبئا على الآخرين ؟ إننى أدرك جيدا أننى لست ذاهبة إلى الجنة ، ولكن . ماذا أفعل ؟ أخبرنى بربك ماذا افعل ؟ وأى فرصة للاختيار عندى ؟

الواقع أننى لم أطلب نصحك إذ أردت أن أفكر فى هذا الأمر وأقرره وحدى ، والقرار الذى كتبته إليك ان يتغير وسأعلن بيكوف به ، وهو يلح على قائلا . إن أعماله لا تستطيع الانتظار ، وإنه لا يستطيع تأخير الزفاف لأى سبب .

ويعلم الله هل سأجد سعادتى معه أو لا ؟ ولكنى سأوكل مصيرى إلى إرادة الله وحده . ويقال إن بايكوف طيب القلب ، وإنه سيحترمنى ولعلنى سأتعلم يوما أن أحترمه . فماذا أنتظر من زواج مثل هذا ؟

لقد اخبرتك بكل ماعندى ياما كار اليكسيفتش ، وأنا واثقة انك ستقدر موقفى . ولا تحاول أن تقعدنى عما عزمت ، فلن تنجح . وفكر لحظة فى كل ما ادى إلى اتخاذ هذه الخطوة . وقد كنت قلقة أول الأمر ، ولكنى أشعر بالهدوء الآن ، ماذا ينتظرنى ؟ لست أدرى ، فالمستقبل غامض . ليكن مايكون . لتكن مشيئة الله .

لقد وصل بيكوف الآن ، لذا فلن أكمل هذا الخطاب وإن كان عندى الكثير مما يقال .

و . د



٢٣ من سبتمبر

حبيبتى فارفار أليكسيفنا

أبادر للرد على خطابك ياعزيزتى وأعلن أننى فى أشد حيرة ، ولا بد أن شيئا ما على غير مايرام ، وقد دفنا جورشكوف بالأمس .

نعم . . إن « بايكوف » قد تصرف تصرفا نبيلا ، لكن هل وافقت أنت حقا يا عزيزتى ؟ طبيعى أن كل شىء لايتم بغير إرادة الله لاشك أن هذا صحيح ، ولا بد أن هذا الأمر أيضا وفق مشيئة الله ؛ ووسائل الخالق مباركة وإن خفيت خفاء القدر . لا شك فى هذا ، وفيدورا توافق أيضا .

بالطبع أنك ستشعرين بالسعادة وتعيشين فى بحبوحة يايمامتى الصغيرة

الحبيبة . . ياملاكى الصغير الجميل — لكن فيم العجلة يافارنكا ؛ نعم . . إن أعمال مستر بايكوف تنتظر وطبيعى أن لكل شخص شئونه . . كل شخص له عمل ينتظره . .

لقد رأيته وهو ينصرف ، إنه شخص يستطيع التأثير فى الناس . . بل أكثر من هذا . . ولكن لاشك أن هناك شيئا ما على غير مايرام . لست أعنى أنه لايستطيع التأثير فى الناس بل أعنى اننى حائر تماما . كيف يتأتى أن نتبادل الخطابات ؟ وكيف أعيش وحيدا ؟ إننى أفكر فى كل شئونك كما طلبت منى أن أفعل ، إننى اجلس هنا طيلة وقتى وأفكر . وكنت على وشك ان انسخ صفحتى العشرين من ذلك المخطوط عند ما وصلنى خطابك . سترحلين إذن ياحبيبتى ولابد أن تشترى كل ماتحتاجين إليه : فساتين وأحذية وما إلى ذلك . إنى اعرف محلا فى شارع جدرو خوفا يا ، ولقد سبق أن ذكرته لك من قبل . . أتذكرين ؟ ولكن كيف سترحلين على الفور ؟ أى فكرة هذه ؟ أنت لاتستطيعين هذا . إنه لمستحيل ! ويلزمك الكثير كى تشتريه ، وانت تحتاجين إلى عربة أيضا ! والجو على غير مايحب : أنظرى كيف تمطر ! كيف تتدفق السماء انهارا ؟ هذا إلى انك ستصابين ببرد . وسيكون قلبك باردا أيضا ، ألا تخشين أن ترحلى مع غريب ؟ وماذا سيبقى لى ؟ إن فيدورا تقول إنك ستسعدين ، ولكنها امرأة معتوهة ، ولا تفكر إلا فى تحطيمى . هل ستحضرين صلاة العشاء ؛ سأذهب اليها لأراك . ولقـــد صدق

« بايكوف » عند ما قال انك فتاة مثقفة حساسة فاضلة ، ولكنه سيفعل خيرا لو تزوج ابنة التاجر ألا ترين معى هذا ياعزيزتى ؟ الن يفعل خيرا لو تزوج ابنة التاجر ؟ سآتى لزيارتك إذا ماحل الظلام ، فالظلام يبكر الآن ولا بد أن آتى . ما إن يحين الغسق حتى أسعى اليك إنك تنتظرين بيكوف الآن ؛ وعند ما ينصرف سآتى . انتظرينى ياعزيزتى فإنى سآتى لزيارتك .

ما كار دوفشكين



٢٧ من سبتمبر .

صديقى العزيز ماكار

يقول مستر « بايكوف » إنه يجب أن يكون عندى ثلاث دست من القمصان المصنوعة من الحرير الهولندى ، لذا فعلى أن أجد خياطة تفصل لى دستتين فما عاد هناك وقت ، إن مستر بايكوف ثائر وهو يقول إن ملابسى الرثة تثير أعصابه . وزفافنا سيتم بعد أيام خمسة ، وفى اليوم التالى سنرحل . فمستر بيكون فى عجلة من أمره ، ويرى أنه من المخجل أن نضيع الكثير من الوقت . وقد تجولت كثيراً حتى لا أكاد استطيع أن أقف على قدمى ، فهناك الكثير مما يجب عمله — الكثير جداً ، حتى أننى لأفضل أن أتركه دون أن أتم عمله ، شىء آخر ان ماعندنا من

الشرائط والدانتلا لايكفي وما من أحد يبتاعه لنا . إن مستر « بايكوف » يقول : إنه لا يحب أن تبدو زوجته مثل خادمة في مطبخ ، وإنني لابد أن أجدع أنوف سيدات المنطقة كلها .

فهل تستطيع أن تذهب إلى « مدام شيفون » في شارع « جوروخوفايا » تطلب اليها أن تبعث إلينا خياطة أو تتكرم هي نفسها بالحضور . إنني لست بخير اليوم فشقتنا الجديدة باردة وغير مرتبة على الإطلاق ، ولمستر بيكوف عمة عجوز مريضة حتى لأخشى أن تموت قبل رحيلنا وإن كان مستر بيكوف يقول : إن هذا لايهم ، ولكنها ستسترد صحتها فيما بعد . كل شيء هنا في اضطراب ؛ مستر بيكوف لا يعيش هنا ، والخدم يتغيبون دائماً ، ويعلم الله أين يغيبون . وثمة أوقات لايكون فيها غير فيدورا تقوم بالعمل كله وحدها . أما وصيف مستر (بايكوف) وهو الذي يدير كل شيء هنا فقد منح اجازة تستغرق ثلاثة أيام . ويأتي مستر بايكوف الى هنا كل صباح ، وهو غاضب دائما . وبالأمس ضرب وكيله ضرباً مبرحاً مما أوقعه في مشكلة مع الشرطة . إنني لم أجد من يحمل خطابي إليك لذا سأرسله بالبريد .

لقد كدت أنسى أهم شيء « قل لمدام « شيفون » أن تغير النموذج وفقاً لعينة الأمس ، ولعلها تستطيع أن تأتي بنفسها وتريني النماذج الحديثة وأخبرها أيضا أنني غيرت رأيي وأريد الحروف على المناديل مطرزة

وليست بغرزة الساتان . إن الكلمة هي مطرزة هل ستذكرها .
وكدت أنسى شيئا آخر ، أرجو أن تخبرها أن تكون حواشي المعطف الفرو عالية ، وأن تضفر ياقاته وأن تحلى الأطراف بالدنتلا أو الشريط العريض . أنك لن تنسى . أليس كذلك ؟ .

المخلصة

ف . د

ملاحظة : إنى خجلة من إرهاقك بمهماتى وأول أمس أيضا كنت تجرى هنا وهناك طيلة الصباح ؛ ولكنى مضطر إلى هذا ؟فليس هنا ولو ظل من النظام وأنا مريضة ، فلا تغضب منى ياما كار اليكسيفتش .
إنى منقبضة القلب ، ماذا سيكون مصيرى ياصديقى العزيز العطوف . إننى أخشى أن أتطلع إلى المستقبل إن المجهول يقلقنى ، ويجعلنى أعيش فى حيرة .

ملاحظة أخرى : أرجو ألا تنسى ماطلبته منك ، وأخشى أن تخطىء لا تنس مطرزة وليست بغرزة الساتان .



٢٧ من سبتمبر

عزيزتى فارفارا أليكسيفنا

لقد نفذت كل تعليماتك بدقة . وقد أخبرتنى « مدام شيفون » أنها ستطرز الحروف بنفسها ، وهذا أكثر ملاءمة أو لعلها قالت شيئا آخر لا أفهمه جيدا . ثم قالت شيئاً ما عن الكانافاه ولكنى نسيت

ماقالت ، كل ما أذكره أنها تحدثت كثيرا عن الكانافاه إنها عجوز مجنونة مزعجة ! وأى شىء آخر تحدثت عنه ؟ لعلها من الأفضل أن تخبرك بنفسها ، فأنا أموت تعبا من الجرى هنا وهناك ، ولم أذهب إلى الديوان اليوم . ولكن لاتقلق بسببى ياعزيزتى فأنا مستعد أن أعدو إلى كل محل فى المدينة إذا كان فى ذلك راحتك . تقولين إنك تخشين المستقبل ، ولكن لاتبتئسى ياعزيزتى فلعل كل شىء يسير إلى أفضل ، لقد وعدت مدام شيفون أن تأتى فى الساعة السابعة ، ولكن لاأستطيع أن أطرد هذا الكانافاه الملعون من ذهنى ، كانافاه . سآتى لزيارتك ياعزيزتى ، سآتى بكل تأكيد ، بل الحق أننى مررت بباب منزلك مرتين ولكن بايكوف — أعنى مستر « بايكوف » غاضب دائما حتى . . إننى حسنا . . لا أستطيع ذلك فحسب .

ماكار دوفشكين



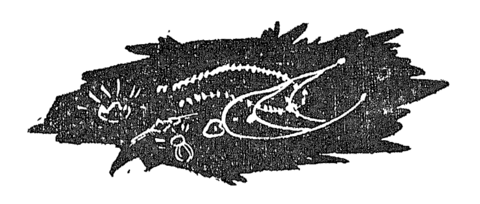
٢٨ سبتمبر

عزيزى ماكار أليكسيفتش

أرجوك أن تسرع إلى محل الجوهرى على الفور وتخبره ألا يصنع هذه الأقراط من ياقوت ولؤلؤ ، فمستر « بايكوف » يقول : إن ثمنها باهظ تماما . وهو حانق ويقول إنه قد أنفق الكثير وأن أمواله تسرق منه . وبالأمس قال أيضاً إنه لو كان قد قدر مثل هذه التكاليف ما ورط نفسه قط ، ثم قال : إنه بمجرد أن نتزوج سنرحل ، وان نستقبل المهنئين وإننى يجب ألا أتوقع حفلا راقصاً أو مأدبة ؛ فما عادت هناك فرصة للاحتفال . . .

هذه هى الطريقة التى يتحدث بها . ويعلم الله أنى لا أعبأ بهذا كله قط وأن مستر « بايكوف » نفسه هو الذى أمر بها . ولم أرد عليه فهو سريع السخط . ترى ماذا سيكون من أمرى . ؟

ف . د



٢٨ من سبتمبر

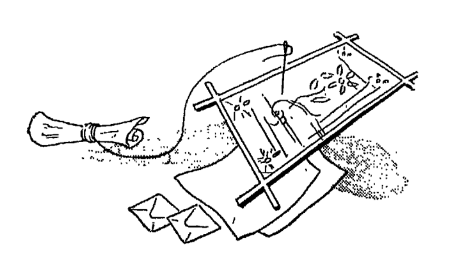
طفلتى المحبوبة ، فارفارا أليكسيفنا

إنى . . أعنى أن كل شىء قد تم بخير بالنسبة للجوهرى ، أما عن نفسى. فقد أردت أن أقول أولا إنى مريض لا أبارح فراشى، ويا للحظ اللعين ! لا أمرض إلا عندما يصبح من الضرورى القيام بأعمال كثيرة .

ومما يزيد من شقائى أن سعادته قد ثار حديثا وصرخ فى يميليان إيفانوفتش حتى بهرت أنفاس المسكين . هذا ما أحببت أن أخبرك به . وكم كنت أحب أن أطيل الكتابة ، ولن أخشى أن أسبب متاعب لاداعى لها ، وأنا رجل بسيط ، ولست بالحاذق قط ، وأكتب مايخطر بالبال: حتى إنك لتجدين بعض ما أخطه على غير ماينبغى أن يكون . على أى حال. ليس لهذا أهمية فعلا .

المخلص

ماكار دوفشكين



٢٩ من سبتمبر

فارفارا أليكسيفنا ، يافتاتى الصغيرة العزيزة :

قابلت اليوم فيدورا وعلمت منها أن زفافك سيعقد غدا ، ثم سترحلين بعد غد ، وأن مستر «بايكوف» قد استأجر الخيل فعلا. ولقد أخبرتك بهذه الأنباء عن سعادته ثم ماذا .. ، نعم . لقد راجعت هذه الفواتير التى أرسلها ذلك المحل فى «جورو خوفايا» وكلها صحيحة ، ولكنها فاحشة الثمن . لماذا يغضب مستر « بايكوف » منك ، على أية حال لتسعدى إلى الأبد ياحبيبتى ، وسيسعدنى أن أعلم أنك سعيدة ، وكنت أود أن أحضر حفل الزواج لولا آلام ظهرى .

وإذا عدنا إلى ذكر الخطابات ، فمن سيحملها إليك ، فيدورا ، . لقد عاملتها معاملة طيبة ، فأنت عطوف وسيباركك الرب لهذا ، فلا بد أن يكافأ الخير ، ولا بد أن تحظى الفضيلة بشرف التقدير الالهى .

حبيبتى — حبيبتى الوحيدة . إنى أحب أن أكتب اليك كل ساعة

كل لحظة — وعندى كتابك « حكايات إيفان بلكين » أرجو أن تترك هذا الكتاب معى ياعزيزتى ، لا لأنى أحب أن أقرأه كثيراً ولكن كما تعرفين قد اقترب الشتاء وستكون أمسياته طويلة موحشة حزينة ، وسيكون هذا هو الوقت الذى تستحب فيه القراءة .

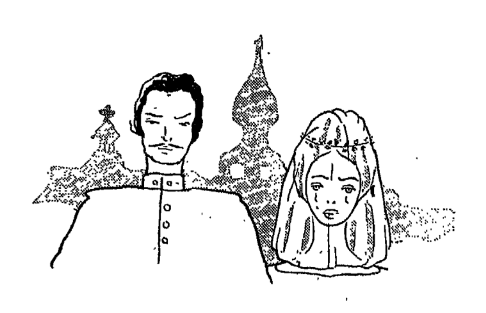
سأنتقل من غرفتى إلى غرفتك القديمة حيث تعيش فيدورا الآن ، فإنى لن أفترق قط عن هذه المرأة الشريفة . وأنت تعلمين كم هى نشيطة .

ولقد زرت بالأمس حجرتك الخاوية . . وأخذت أذرعها وأتأمل الأشياء . . وهناك . . فى ركن من الأركان رأيت إطار تطريزك الحبيب بل إن به قطعة كنت تطرزينها . . وتأملتها . . ثم رأيت أشياء أخرى كثيرة ، وأسعدنى كثيراً أن أراك استعملت إحدى خطاباتى كسلكة تلقين عليها خيط الحرير ، وعلى المنضدة أيضاً وجدت قطعة من ورق قد خطت فيها كلمات قلائل : « عزيزى ماكار أليكسيفتش . . إننى أسرع . . »

لا بد أن شخصاً ما قاطعك عندئذ ، وفى ركن الغرفة خلف الستار رأيت سريرك الصغير ياياماتى الصغيرة العزيزة المسكينة . .

أخيراً وداعا . . وداعا ياعزيزتى . . ارجو ألا تبطئى فى الرد .

ماكار دوفشكين



٣٠ من سبتمبر

ماكار أليكسيفتش ، يا أخاص الأصدقاء وأبقاهم

لقد انتهى الأمر ، وقضى الله أمراً كان محتوماً ، ولست أدرى ماذا ينتظرنى ، ولكنى سأخضع لمشيئته .

سنرحل غداً وها أنذا أكتب هذه السطور لأودعك ، يا أصدق أصدقائى ، ياصاحب الفضل على ، ياروحى . لا تحزن لفراقى ، واهنأ بحياتك واذكرنى ، وليكن الله معك دائماً . سأذكرك ، وسأذكر اسمك فى صلاتى دائماً ، وهكذا تنتهى حياتى التى عشتها هنا ، والكثير مما سأذكر هنا لن يمنحنى إلا القليل من العزاء فى المستقبل ولكن أعز الذكريات إلى نفسى ستكون ذكراك ، فأنت صديقى الوحيد ، الشخص الوحيد الذى أحبنى .

لقد رأيت وعرفت أنك تحبنى ، وكانت ابتسامة منى أو سطر أكتبه

يكفى كى يجعلك سعيدا ، والآن عليك أن تنسانى . . كم ستكون وحيدا ! ومن سيكون إلى جانبك يواسيك ؟ ياصديقى الوحيد العطوف . سأترك لك الكتاب وإطار التطريز والخطاب الذى بدأته ذات يوم ولم أتمه .. أعد قراءة السطر الأول ثم تخيل ما يرضيك تتمة له ، فالله وحده يعلم ماذا كنت سأكتب . تذكر حبيبتك فارنكا التى أحبتك كثيراً . لقد تركت كل خطاباتك فى الدرج الأعلى من صيوان ملابس فيدورا .

كتبت إلى تقول إنك مريض ، ولكن مستر « بايكوف » قد منعنى عن الخروج اليوم ، سأكتب إليك طبعا ، ولكن الله وحده يعلم ماذا سيحدث ، وعلى هذا فن الأفضل أن أودعك الآن ياحبيبى وكنزى . كم كنت أحب أن أعانقك ! .

وداعاً يا صديقى . وداعاً . اعتن بصحتك وعش سعيداً على الدوام وسأصلى من أجلك . إن قلبى لينفطر حزنا . .

ومستر « بايكوف » ينادينى

التى تحبك إلى الأبد

ف

ملاحظة : روحى مفعمة جد مفعمة بالدموع . وتكاد العبرات تخنقنى . . وداعاً . .

تذكر حبيبتك فارنكا المسكينة . .



٣٠ من سبتمبر

فارنكا : عزيزتى وحياتى وحبيبتى . .

لقد انتزعت منى انتزاعاً وها أنت ذا راحلة ! . . كنت أفضل لو انتزعوا قلبى من صدرى ! كيف سمحت لهم أن يفعلوا هذا ؟ أنت تبكين ومع ذلك ترحلين . ولا زال خطابك الذى وصل إلى الآن تبلله الدموع أذن فأنت لا تودين الرحيل فعلا ، إذن إنهم يرغمونك على الرحيل وانت آسفة من أجلى . . انت تحبيننى . من ذلك الذى سيعنى بك الآن ستخيم على قلبك الصغير البرودة والشجن ، سيأ كله الأسى ، ويحطمه الشجن ، وتموتين هناك وحيدة ويدفنونك فى الأرض الباردة ، وما من أحد يبكى فوق قبرك ، فسيكون مستر « بايكوف » مشغولا بصيد أرانبه .

آه ، يا حبيبتى ، كيف استطعت أن تتخذى مثل هذه الخطوة ؟ ماذا فعلت ؟ أى ضرر ألحقته بنفسك ؟ إنهم يمضون بك إلى القبر ، إنهم

يطردونك من الحياة ، فما أنت إلا مخلوقة رقيقة كريشة صغيرة ياحبيبتى وأين كنت أنا ..؟ ماذا كنت أفعل ؟ لقد قلت لنفسى إن الطفلة مريضة ، وبرأسها خيالات . كان من واجبى .. ولكن كلا ! لقد تصرفت كأى أحمق ، فلم أفكر فى شىء ، ولم أقرر شيئا ، كأنما الأمر لا يعنينى .. يا إلهى .. بل إننى كنت أركض هنا وهناك أبحث عن « الكانافاة » .

كلا يا فارنكا . سأنهض من فراشى ، سأشفى غدا وسأنهض من فراش مرضى ، وسألقى بنفسى تحت عجلات عربتك ، ولن أدعك ترحلين ! فهذا ظلم . وأى حق لهم أن يأخذوك منى ؟ سأذهب معك وسأجرى وراء عربتك إذا لم تأخذينى معك ! سأجرى حتى تخور قواى وأسقط على الأرض .

وإلى أين ترحلين ؟ أتعرفين ؟ سأخبرك . إنك ذاهبة إلى الإستبس — الإستبس العارية الجرداء ككف يدى . فمن سترين هناك ؟ زوجات الفلاحين اللواتى أنهكهن العمل الشاق ، وأزواجهن السكارى . حتى الأشجار هناك قد فتتها المطر والبرد . هذا ما أنت ذاهبة إليه !

أما مستر « بايكوف » فسيكون مشغولا يصطاد أرانبه البرية وأنت ، أتريدين ان تكونى زوجة مالك للأرض ياعزيزتى ؟ إذن فانظرى لنفسك يا ملاكى الصغير ! أتشبهين على الإطلاق زوجة مالك للأرض ؟ من الواضح انك ليست كذلك يا فارنكا ! وإلى من سأكتب خطاباتى بعدك ؟ هل راجعت نفسك وفكرت ؟ إلى من سأكتب ؟ من سأناديه

قائلا « فارنكا » ؟ من سأناديه بهذا الاسم العـــذب ؟ أين سأجدك يا ملاكى ؟

إننى سأموت قطعاً يافارنكا فلن أستطيع إطلاقا أن أتحمل مثل هذه الصدمة . لقد أحببتك كما أحب ضوء النهار . أحببتك كأنما أنت ابنتى احببت كل شيء فيك ، وكل شيء يتعلق بك ، بل لقد عشت لك فحسب يا حياتى . .

كنت أعمل وأنسخ أوراقى وأتنزه وأدون ملاحظاتى فى خطابات جميلة ، لأنك كنت قريبـــة منى فحسب ، ولعلك لم تدركى ذلك أبدا ، ولكن هكذا كان الأمر . استمعى إلى يافارنكا : كيف يتأتى لك أن ترحلى عنى ؟ . أنت لاتستطيعين ، فهذا مستحيل ، لا مجال للتفكيرفيه إن السماء تمطر وسيصيبك برد بالتأكيد ـــ وأنت جدضعيفة شاحبة ولاشك أن سقف العربة سيمتلىء بالثقوب ، وستتحطم العربة ستتحطم بالتأكيد فى اللحظة التى تغادرين فيها المدينة لك أن تتوقعى هذا يا عزيزتى فما يشغل صناع العربات فى بطرسبورج سوى آخر طراز . والأهداب الأنيقة ، ولكنهم لايستطيعون أن يبنوا عربة قوية . . أقسم أنهم لا يستطيعون . . . سأركع على ركبتى أمام مستر بيكوف ياحبيبتى ، سأثبت له أنه لا يستطيع أن يختطفك منى ، سأثبت لهم جميعاً هذا ، وأنت ياحبيبتى يمكنك أنت وهو أن تتفاهما أيضاً ، قولى له إنك لابد ان تقيمى هنا ، وأنك لا تستطعين الرحيل .

لماذا لم يتزوج ابنة ذلك التاجر فى موسكو ؟ خير له لو كان قد

فعل . . فابنة التاجر أنسب له ، أنسب له كثيرا . أنا واثق من هذا ، وعندئذ يمكنك أن تقيمى هنا معنا .

ولماذا تحتاجين إلى مستر بيكوف ؟ كيف استطاع أن يدخل قلبك ؟ أليس بسبب « الكانافاة » بالتأكيد : فلا هى « الكانافاة » آخر الأمر ؟ .. ولكن لماذا أذكر « الكانافاة » ؟ . إنها حماقة يا حبيبتى ، فهذا موضوع حياة أو موت وليس موضوع « كانافاة » ، فما الكانافاة إلا قطعة من قماش : الكانافاة خرقة تافهة فحسب . إنتظرى حتى أقبض مرتبى ، وسأشترى كل الكانافاة التى تحتاجين إليها يا حبيبتى . سأشتريه من ذلك المحل . أتذكرينه ؟ . . إنتظرى فقط حتى أقبض مرتبى يا ملاكى العزيز .

آه يافارفارا . . ياإلهى . . وهكذا لابد أن ترحلى مع مستر بايكوف وإلى الأبد ؟ آه يافارنكا .

كلا . . يجب أن تكتبى إلى خطابا آخر فحسب . . خطابا واحدا . واكتبى إلى من الاستبس مرة أخرى . فإذا لم تكتبى فإن الخطاب الذى وصل إلى الآن سيكون هو الخطاب الأخير : وهذا محال ، لايمكن أن يكون الأخير كيف يمكن أن يكون الأخير؟ الأخير — فجأة .. كيف ؟

ولكنى سأكتب إليك مهما كان الأمر ، وستكتبين إلى أنت أيضا . وأسلوبى يتخذ له شكلا ويتضح الآن . أسلوب . . أى أسلوب ، إننى لاأعرف ماذا أقول . . وماذا أكتب . . ولكن هذا لايهمنى مادمت أكتب وأكتب واستمر فى الكتابة . . يايمامتى الصغـــيرة — يمامتى الفريدة الوحيدة . . ياحبيبتى ! . .

المؤلف



فيدور ميخايلوفتش دستويفسكى من كبار أدباء روسيا فى القرن التاسع عشر ، ولد فى موسكو سنة ١٨٢١ وتخرج فى مدرسة الهندسة العسكرية ولكنه تفرغ للحياة الأدبية وامتاز بالقدرة على البناء الدرامى للقصة ، وعلى تصوير نماذج بشرية خالدة ، وفى سنة ١٨٦١ اشتغل دستويفسكى بالصحافة ومن أشهر أعماله « الجريمة والعقاب » و « العبيط » و « الأخوة كرامازوف » التى نشرت عام ١٨٨٠ .

وقصة « المساكين » هى أولى قصصه الطويلة وتعد قوة جديدة فى الأدب الروسى وهى مهداة الى البائسين من الناس الذين طحنتهم ظروف الحياة القاسية فآثروا العزلة عن المجتمع .

واحتفلت روسيا بوفاة دستويفسكى سنة ١٨٨١ .